أنيس منصور

حلمنا الجميل

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حلمنـــــا الجميل

أنيس منصـــــور

كلمة أولى..

أنت تساوي أحلامك..

قل لى: بماذا تحلم، أقل لك من أنت..

والشعوب أحلامها أيضًا..

فالذي يعاني الجوع يحلم بالخبز من كل لون.. والعريان يحلم بأجمل الملابس.. والأعزب يحلم بالبيت السعيد..

والمقهور والمظلوم يحلم بالعدل..

ولولا أن الإنسان يحلم والشعوب أيضًا، ما تقدمت البشرية.. وهناك أناس عندهم قدرة على الرؤية والرؤيا.. ولم يكن يوسف عليه السلام إلا نموذجًا للقدرة الإلهية على تفسير الأحلام مهما تباعدت المسافة بين الحلم وتحقيق الحلم..

وكذلك الشعوب تحلم بما سوف يحدث بعد عام وبعد مائة.

وهناك فرق بين الأحلام وبين الكوابيس.. فالكوابيس هي مخاوف مزعجة.. وهى مزعجة لأنها أفسدت على صاحبها النوم.. ولكن الأحلام الشفافة.. الرؤيا هى الأمل زائد الواقع زائد القدرة على تحقيقه.

والشعوب الكبرى هي التي جعلت أحلامها مستقبلها.. وكما أن هناك شعوبًا أدمنت ماضيها وعاشت في وهم العصور الذهبية التي وراءها، هناك شعوب أدمنت مستقبلها والعصر الذهبي الذي سوف يجيء..

وربما كان أعظم حلم تحقق في القرن العشرين: انهيار الاتحاد السوفيتي إلى دول صغيرة مستقلة كانت الشيوعية تربطها بالحديد والنار والذل والقهر والشك والخيانة. فبعد سبعين عامًا من الصمت الأليم والصبر الموجع أفلت الاتحاد السوفيتي من جلاديه.. وانهارت روسيا بعضها على بعض.. وضعفت.. وفقد العالم كله دولة عظمى وانفردت أمريكا بالحاضر والمستقبل وصارت الدولة الوحيدة التي تملك مصير الأرض وشعوب الأرض..

ولكن الأمل عظيم في أن تحقق دول أخرى أحلامها فلا تنفرد أمريكا بالذهب والفضة واليورو والدولار..

سوف تسترد روسيا مكانها ومكانتها فهي دولة عظمى بمواردها البشرية والعلمية وكنوزها البترولية والمعدنية..

وكذلك الصين العظمى..

ودول الاتحاد الأوروبي..

وفي تعدد الدول العظمى وتنافسها بعضها مع بعض وعلى الدول الفقيرة المستهلكة سوف تعتدل كل المقاييس والموازين..

وبدلًا من أن تكون الحروب الدموية.. تكون الحروب السلمية.. أي التنافس من أجل القضاء على الفقر والمرض والجهل والقهر في أي مكان..

وعندنا أمل..

☆ ☆ ☆

لو قال الناس..

في سنة 1981 اغتيل السادات، ونجا من الموت ريجان رئيس أمريكا، ويوحنا بابا الفاتيكان، وفرنسا اختارت ميتران، ومصر اختارت مبارك..

والناس أمام الحاكم الجديد يريدونه أن يملأ الفراغ الذي تركته معجزات السماء.. فيكون قادرًا على كل شيء: يضرب الأرض تطرح بطيخًا، ويحول البحر طحينة.. ويجده المواطن عند أطراف أصابعه ليلًا ونهارًا.. ولكن الحاكم - جديدًا أو قديمًا- لا يختلف عن المواطن: بشر.. له أيضًا مشاكل مع الناس حوله، وأمامه مع الوزراء والرؤساء، وهم أيضًا عندهم أضعاف ما عنده.. ووسط هذا الزحام فوق قمم العالم تنحل مشاكل سكان السفوح:

ألوف الملايين من الجوعى والمرضى..

ولو قال الحاكم: آه؛ لقال الناس: عنده فلوس وسلطة وعنده أحسن دكاترة..

ولكن الحاكم إذا توجع، فالتوجع شخصي.. والأرق شخصي.. سواء كان وجعه نفسيًّا أو جسميًّا أو عائليًّا أو عسكريًّا أو سياسيًّا.. فهو المرصود وهو المقصود - ولا أحد يفدي أحدًا.

وكان الرئيس الأمريكي لنكولن يقول لخصومه: لو أن أحدًا جمع كل الذي يملكه ووضعه على كتفيه، وكان ذلك أطنانًا من الذهب.. وكان لابد أن يمشي على حبل بين ضفتي نهر.. فما الذي يمكن أن يحدث لو أن كل الناس في وقت واحد قالوا له: شمالًا.. يمينًا.. على مهلك.. أسرع.. الحبل ضعيف.. الذهب ثقيل.. لا بل هو الأضعف.. فلو صبر الناس، لو أعطوه بعض الوقت يأخذ نفسه.. لو.. ولكن الناس لا يصبرون! والاحتياج والقلق وعدم الشعور بالأمان هو الذي جعل الملايين تختار رجالًا يختل توازنهم بعد ذلك بسبب الصرخات على جانبي النهر.. فالناس يؤلهون الحاكم من أجل حل مشاكلهم فلا يستطيع.. لأنه بشر، ولأنه عاجز عن أن يستأصل من أعماقهم: الإيمان بالحاكم المعجزة!.

وبراعة الحاكم الجديد هي أنه على الرغم من كل ذلك؛ يستطيع أن يحقق التوازن والاعتدال والاستقرار والاستمرار، وألا يفقد أمله في الناس، ولا الناس أملهم فيه -استطاع ذلك حسني مبارك بالعقل والرفق والرحمة واحترام الناس..

☆ ☆ ☆

لا منطق لها..

منطق الجماهير: أن ليس لها منطق..

ولكن لها عاطفة كاسحة إلى اليمين أو إلى اليسار.. إلى ناحية بعيدة من المنصة أو من الصورة أو المنابر.. فالذين حزنوا لاغتيال السيد «سولومون باندرانيكا» سنة 1959، اختاروا زوجته رئيسة لوزراء سيلان..

والذين حزنوا على اغتيال السيد «ذو الفقار بوتو» سنة 1979، اختاروا ابنته «بنظير» رئيسة للوزراء.

والذين أحزنهم اغتيال السيدة «أنديرا غاندي» اختاروا ابنها رئيسًا للوزراء.

والذين شاركوا السيدة «كورازون أكينو» حزنها على اغتيال زوجها الذي عارض الرئيس «ماركوس» اختاروها رئيسة للفلبين..

ولكن الجماهير أيضًا تعاطفت مع قاتل أنديرا غاندي.. ولم تره مجرمًا، إنما رأته وطنيًّا قد أنقذ البلاد من الحكم الطويل لأنديرا، ابنة الزعيم «نهرو».. فاختاروا القاتل وزوجته وأباه أعضاء في البرلمان.. واختاروا أيضًا المتهمين الآخرين بقتل أنديرا.

ولو كان «راجيف غاندي» هو الذي قتل أمه، كما فعل الملك أوديب في أساطير الإغريق، لاختاره نصف الناس.. فنصف الناس يقول: ابن عاق ونموذج سيئ لكل الأبناء.. ونصف آخر يختاره لأنه استطاع أن يتجاوز الألم الشخصي، وقطع ذراعه وفقأ عينيه من أجل الشعب!!

والذين أحزنهم موت الزعيم الأرجنتيني «بيرون» جعلوا أرملته رئيسة للجمهورية!

والجماهير التي وضعت «تشرشل» بطل الحرب على دماغها وفي عينيها، ورددت عباراته البليغة عندما انتهت الحرب، أسقطوه.. فهو لا يصلح أن يكون رجل السلام الذي يصلح ويبني، وابتلع الرجل غيظه، ولكن هذه هي الشعوب، إنه مثل طبيب شخَّص المرض ووصف الداء والدواء، ولما شفي المريض كان لابد أن يرحل ورحل.

وديجول بطل الحرب هو الآخر، بعد أن أبدى الشعب الفرنسي امتنانه لهذا الرجل العظيم، كان لا بد أن يرحل هو أيضًا: لا بد أن يخلع ملابسه العسكرية... ورحل، فهو ذكرى باقية لصورة أليمة عاشها الشعب ويريد أن ينساها..

وينساه!

☆ ☆ ☆

لا إعدام!

شيء فظيع أن تقتل إنسانًا؛ ولذلك رأت بعض الدول منع عقوبة الإعدام عقابًا على جريمة القتل العمد. إذ يكفي أن واحدًا قد مات!

فالإرهاب والاغتيال والأعمال الانتحارية شيء بشع؛ لأنها تتجه إلى الأبرياء في غير ساحة القتال.. بينما في الحرب يلتقي أناس مسلحون يعرفون مقدمًا أنهم قاتلون أو قتلى؛ ولذلك استعدوا للشهادة دفاعًا عن الوطن والعقيدة..

ولكن الإرهاب هو واحد من أسلحة اليأس. فالغاضبون السياسيون يستأنفون القتال ضد أعدائهم في أماكن غير معلنة.. وهم يريدون لقضيتهم أن تظل مشتعلة، وأن يدري بها الناس؛ لعلهم يساعدون على حلها.. ولذلك فالإرهاب موجود في كل العصور، سابق على الانقلابات والثورات وفي أعقاب الهزائم العسكرية وفي مقدمة الحروب وفي أثنائها.

وكان اليهود كذلك قبل تكوين دولتهم، وكان الفلسطينيون بالأمس، وسوف يستأنفون ذلك غدًا وبعد غد. فمادامت الحرب لم تعطهم أرضهم، ومادامت الأرض العربية قد ضاقت بهم وعنهم، فلابد من البحث عن منصات جديدة لإطلاق صواريخهم على إسرائيل، وعلى الأمريكان، ويهود العالم، وعلى أشقائهم العرب؛ يأسًا من المجتمع وانتقامًا من الجميع..

إن الفيلسوف الوجودي ألبيركامي هو أول من قال: إننا في عصر فلاسفة القنبلة.. أي في عصر صاحب الرأي الذي يدافع عنه بالنار أو يفرضه بالنار، سواء كان هذا الرأي سياسيًّا أو دينيًّا.. ولا أحد يعرف مدى هذا الإرهاب المذهبي.. فلا يزال العالم ينزف دمًا في أكثر من أربعين حربًا دائرة الآن.. وهو ما أدى إلى رواج تجارة السلاح، ونشاط المنظمات الدولية التي تطالب بوقف القتال واحترام حقوق الإنسان!

ولن يوقف هذا الغضب العالمي أن تدينه الأمم المتحدة أو أي منظمة أخرى.. فكما أننا لا نعالج الأمراض باستنكارها أو القرف منها، فكذلك قضايا الشعوب الخاسرة في الحرب والسلام!

☆ ☆ ☆

القبيح الوجه

بعد نكسة 1967، أصبح المصري هو الإنسان «القبيح الوجه»، بين العرب.. وأصبح العربي هو الإنسان «القبيح الوجه» في العالم كله.. والسبب: أن هزيمتنا كانت فضيحة!

ولكن بعد أكتوبر 73 لم يعد المصري هو الإنسان القبيح الوجه.. ولا العربي أيضًا.

ولكن فجأة: أصبح العربي هو الإنسان «القبيح الوجه» في لندن.. لماذا؟ لما يرتكبه من أعمال سفيهة في الكباريهات وأندية القمار.. فالأرقام الرسمية تقول: إن عدد السياح من الكويت: 70 ألفًا.. ومن السعودية 60 ألفًا، ومن مصر 45 ألفًا، ومن العراق 25 ألفًا، ومن دول الخليج 20 ألفًا.. وقد بلغ ما أنفقه العرب في لندن وحدها هذا العام 800 مليون جنيه إسترليني.. وقدرت صحف الكويت ما أنفقه أبناء الكويت هذا العام وحدهم بمائة مليون جنيه.

ولا يدخل في هذه الأرقام ما يدفعه العرب في الكباريهات وفي كازينوهات القمار.. وإنما فقط ما يدفعه العرب في الفنادق وفي المحال التجارية.. ولا يدخل في ذلك أيضًا حساب السيارات التي يعودون بها.. وقدرت صحف الكويت أن ما يدفعه السائح الكويتي وأسرته في الزيارة الواحدة خمسة آلاف جنيه على الأقل.

ولا يدخل في هذه الأرقام ما يرتكبه السفهاء العرب من إلقاء الجنيهات من نوافذ السيارات بدافع السكر والعربدة.. أو التظاهر بنعمة الله.. ولا يدخل في الحساب أن واحدًا بعد نهاية إقامته في أحد الفنادق أهدى سيارته الرولزرويس إلى ذلك الفتى الأشقر الذي يفتح للضيوف!.. ولا يدخل في الحساب أيضًا ما اشتروه من الفِلَلِ والبيوت القديمة خارج العاصمة البريطانية.. والإنجليز لا يشكون من ذلك.. إنما يريدون أن يتأكدوا هل يتكرر ذلك في العام القادم.. لقد تشكلت هيئات للبحث الميداني لمعرفة رغبات السياح العرب، وكيف يمكن تلبيتها إلى الأبد!

ماذا نقول؟

هل نلعن البترول؟ هل نلعن أنفسنا.. نحن الذين ننفق مئات الملايين علي الكباريهات؛ لنفضح العرب، وعلى العصابات والمؤامرات لنقضي على العرب؟!... ما أقبح وجوهنا في أي مكان نذهب إليه!

☆ ☆ ☆

القبيلة 13

وشهد شاهد من أهلها!

أما الشاهد فهو الكاتب الكبير أرثر كيستلر.. وهو يهودي يشهد ضد إسرائيل، وضد كل أكاذيب إسرائيل والصهيونية في كل العصور.. وهذه الشهادة قد أدلى بها في كتابه الممتع «القبيلة الثالثة عشرة».. والكتاب قد صدر منذ أيام.. موضوع الكتاب أنه عاشت في القرن التاسع بين البحر الأسود وبحر قزوين مجموعة قبائل تكونت منها دولة.. هذه القبائل اسمها: الخزر.. كانت هذه القبائل وثنية.. وكان العالم في ذلك الوقت: المسيحيون في الشمال، والمسلمون في الجنوب.. وبلاد الخزر «مخاضة» أو طريق يخوضه أبناء الشمال والجنوب ذهابًا وإيابًا.. وكان لابد أن تختار هذه الدولة بين الجانبين.. أي يجب أن تنحاز إلى الإسلام أو إلى المسيحية.

وقررت هذه الدولة سياسة ألا تنحاز للإسلام أو المسيحية باختيار الديانة اليهودية.. وقبل اعتناق اليهودية، فإن ملكها بولان.. قد استشار علماء المسيحيين فاختاروا له اليهودية - هكذا يقول.. فاختار لشعبه اليهودية؛ ومن المعروف أن أبناء يعقوب -أي إسرائيل- اثنا عشر ولدًا تكونت منهم القبائل اليهودية الاثنتا عشرة.. ويقال: إن عشر قبائل قد ضاعت معالمها في التاريخ.. يقال في وسط أوروبا.. ويقال في وسط إفريقيا.. ولكن يهود الخزر هم - إذن - القبيلة الثالثة عشرة..

وأخطر ما وصل إليه الكاتب اليهودي كيستلر أن كل دعاوى اليهود يجب أن تسقط فورًا.

فيهود أوروبا الشرقية والوسطى ليسوا ساميين، وإنما هم أبناء الخزر الذين هربوا في القرن الثالث عشر أمام قوات جنكيزخان.. والخزر من القوقاز: شعورهم حمراء، وعيونهم زرقاء، وبشرتهم شقراء.. إذن فليس صحيحًا أن اليهود ساميون آسيويون.. وليس صحيحًا أن اليهود من أبناء فلسطين.. وليس صحيحًا أن اليهود هم أبناء سليمان وداود -كل هذا يقوله كيستلر.. ويقول أيضًا: وليس صحيحًا أن لليهود أي حق في إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين.

ويقول أيضًا: وإنما إسرائيل قد أقامها قرار التقسيم الذي اتخذته الأمم المتحدة سنة 1947.

وليس صحيحًا: أن اليهود هم الشعب الذي اختاره الله - هذا رأيه أيضًا!

وليس صحيحًا ما قالته جولدا مائير في مذكراتها: إن الله لم يختر اليهود، وإنما اليهود هم الذين اختاروه.. وليس في هذا الاختيار شيء جديد.. فقد فعل ذلك إخناتون من قبل!

إن الكاتب الكبير كيستلر قد هدم بالمنطق والشجاعة كل الصهيونية العالمية.. فاستحق أن يثور عليه النقاد واليهود في العالم كله!

☆ ☆ ☆

توقيعات لستالين

يقول «تشرشل» في مذكراته: إنه فوجئ في أثناء انعقاد مؤتمر «بوتسدام» أن «ستالين» العظيم قد اتجه إليه بسرعة ومعه دفتر «أوتوجراف»، وطلب إليه أن يوقع فيه.. واندهش «تشرشل» جدًّا.. ولكنه أخرج قلمه من جيبه.. وطلب إليه ستالين أن يكون التوقيع واضحًا.. وفاجأه ستالين بقوله: إن أحفادي يريدون ذلك..

وكتب «د. موران» في مذكراته.. وكان طبيبًا لتشرشل: إنه في أثناء الغارات الرهيبة على لندن طلب إليه تشرشل أن يحضر بسرعة.. وجاء الطبيب وقد تصور أن أزمة معوية حادة قد أصابت الزعيم البريطاني.. ولذلك ملأ حقائبه بكل أنواع العقاقير التي قد يحتاج إليها.. وكان يعلم مُقَدَّمًا أن هناك مشكلة مع تشرشل وهي أن تشرشل يعالج نفسه بنفسه على الرغم من كل ما ينصح به الأطباء.. وفوجئ د. موران بأن تشرشل يسأله إن كان يذكر تركيب الدواء الخاص بالمغص الكلوي الذي ابتكره أحد الألمان، ولكن الطبيب لم يستطع أن يذكر ذلك.. فقد استدعاه تشرشل في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم فأسرع إليه والنوم في عينيه.. وبعد ساعتين استدعاه مرة أخرى ليقول له إنه عرف النِّسَب الحقيقية لهذه العقاقير!

ومن العجب أن تشرشل كان يحتفظ بروشتات الأطباء لسبب غريب: هو أن يثبت للأطباء أنهم متناقضون في تشخيصهم للداء والدواء!

ويقول «د. موران»: إن معظم أصدقاء تشرشل هم ضحاياه.. فهو الذي وصف لهم الدواء.. حتى إذا أصابهم الداء عاد يصف لهم العلاج.. ولم يكن هناك شيء واحد يشغله عن هذه الهواية الغريبة!

وفي كتاب الصحفي الأمريكي «وليام شيرر» الذي ألفه عن «قيام وسقوط الرايخ الثالث» يقول: إن هتلر كانت له هواية غريبة: أن ينظر في عيون الآخرين حتى يصيبهم بارتباك شديد!

ولكن من العجيب أيضًا أنه كان يفعل ذلك مع التماثيل: فهو عندما رأى تمثال بسمارك أتى بسلم طويل وصعد إلى رأس بسمارك ونظر في عينيه!

ولما توفي أحد مصوري هتلر ومشى في جنازته.. كان مهمًّا جدًّا أن يكشف الغطاء عن وجهه ثم يفتح عينيه!

وأديب فرنسا «مالرو» الذي توفي أخيرًا هو صاحب العبارة التي تقول: هناك طفل صغير يعيش في حياة كل رجل عظيم!

☆ ☆ ☆

أعود إلى سيناء

كان ذلك في مطار العريش منذ 24 يومًا.. كل شيء يتحرك.. كل شيء لامع صارخ حار.. الطائرات في السماء والمدافع على الأرض، والعيون والأسنان والأحضان والقبلات: وغدًا نلتقى في تل أبيب تمامًا كما يقول اليهود لأنفسهم: غدًا في أورشليم!

وكل العيون والأيدي وفوهات المدافع ومقدمات الطائرات متجهة إلي إسرائيل، الكل سعيد بهذا الحشد الهائل. وسعيد لما سوف يحدث غدًا أو بعد غد.. وأحسست أنني أيضًا قنبلة تكاد تنفجر من الفرحة.. والأرض تضيق عني، وساقاي لا تقفان.. وقدماي لا تكفان عن الحركة. أريد أن أعود إلى القاهرة في أسرع وقت؛ لعلي أجد الكلمات التي أعبر بها عن فرحة الشباب، وسعادة الرجل وعن أمل مصر في أن تزحف وتُخْرج عدونا من الأرض التي اغتصبها..

وفي هذه اللحظة جاء الفريق «صدقي محمود» في جولة تفتيشية.. وسألني: ماذا تصنع؟.. فقلت: لا شيء سوي البحث عن وسيلة للعودة إلى القاهرة.

وشكرته أن دعاني لركوب طائرته. وكان ذلك يوم 4 يونيو سنة 1967، وكان ذلك آخر عهدي بسيناء.. وكان ما نعرفه ونحزن عليه، ونحمد الله أن عوضنا عن ذلك كله في العاشر من رمضان والأيام التالية..

واليوم أعود إلى سيناء!

كم كلمة هذه الجملة؟!.. كم حرفًا؟!.. ولكن الذي حدث لنا منذ ذلك اليوم أطول وأعرض وأعمق وأعظم مما نتصور جميعًا.. لقد جاءت النكسة مروعة. وجاءت الهزيمة ساحقة ماحقة.. وغاصت وغارت أقدامنا في الأرض..

وقبل أقدامنا انحدرت رؤوسنا وتكسرت قلوبنا. ولم يرحمنا عدو ولا صديق، ولا حتى نحن رحمنا أنفسنا!

الآن أنا على أرض سيناء مع الجيش الثالث في عيون موسى.. عبر القناة، عبر الساتر الترابي الطويل العريض العميق.. وعبر الجسور التي نقلت جنودنا من الماضي الأليم إلى الحاضر العظيم وإلى المستقبل الباهر بالعلم والإيمان والصبر والتضحية.. إن كل كلمة لها قصة. وكل قصة لها أبطال. وكل بطل له ملحمة.. وكل ملحمة عَرَق ودم ونداء في الظلام وفي وجه النار: الله أكبر.. الله أكبر.. خرج هذا النداء بلا ترتيب بلا تلقين.. كل الحناجر تنطقه في وقت واحد.. وفي كل مكان. وكان الله أكبر من كل كبير، وكل قوي وكل غاشم..

ونسأل: من هم أبطالنا؟

ويقال لنا: كلنا أبطال.. من الذي ضحى أكثر؟ كلنا.. من الذي حارب؟ الله.. من الذي انتصر؟ الله.. من الذي سوف ينصرنا؟ الله أيضًا.. اليوم وغدًا.. إن ساعات العذاب والبرد والنار والجوع والعطش طويلة، ولكن النصر هو الماء والهواء، وهو الكرامة والامتنان.

أعط كل من تلقاه أذنيك وأنت تطمئن على أن مصر يحميها رجال وأبطال، ذهبوا للموت من أجل الحياة، حياة الملايين.. ذهبوا للموت من أجل الكرامة.. ذهبوا إلى سيناء من أجل السويس وبورسعيد والقاهرة وأسوان، وكل البلاد العربية!

☆ ☆ ☆

هذه البقعة

قد يهون العمر إلا ساعة

وتهون الأرض إلا موضعًا

وشوقي يقصد أن هناك لحظات في العمر تزن العمر كله، ومساحات من الأرض أروع من كل الأرض..

فهذه البقعة التي رأيت الرئيس السادات يجلس تحت ظلالها، وعلى عشبها، وعلي مدي أمتار من مائها.. إنها مساحة من الأرض كانت شيئًا موجعًا، وأصبحت اليوم قطعة من الجنة، إنها مساحة صغيرة من جزيرة الفرسان بالإسماعيلية.. هذه الأعشاب الخضراء كانت بارودًا أسود، هذه الأشجار كانت محترقة، هذه القناة كانت بلا حياة.. بل ميتة كأنها مرسومة على ورق.. ثم فتحها السادات للدنيا في ذكرى يوم الهزيمة.. وفيها يمر أحدث ما وصل إليه العلم من سفن النقل والركاب.. فالقناة ليست معرضًا حيًّا فقط، وإنما هي حفلة تكريم متواصلة لمن فتح القناة وأحياها، وعبرها إلى الناحية الأخرى من أرضنا في سيناء حيث الساتر الترابي، الذي كان جزءًا من خط بارليف المنيع.. ومن سيناء أيضًا انطلقت رصاصة أصابت عبد المنعم رياض، وإلى نفس المكان تسللت قواتنا وقتلت 27 جنديًّا انتقامًا لعبد المنعم رياض.. وبعدها بأمتار وجد اليهود التراب الذي وضعه أجدادنا عندما حفروا القناة.. فأقام عليه اليهود جسور الثغرة التي فتحوها، فأطبقناها عليهم، وطردناهم وأسرناهم وهزمناهم..

بل إننا طردنا خوفنا، وأسرنا يأسنا، وهزمنا هزيمتنا..

وينظر الرئيس السادات إلى الناحية الأخرى، فيرى البلدوزرات تكتسح الساتر الترابي؛ تمهيدًا لتوسيع القناة.

إنها دنيا من الصور والأحداث.. لو كان لها صوت لكانت أروع موسيقى، لو كانت لها رائحة لكانت أذكى العطور، لو كان لها طعم لكانت سحرًا حلالًا.

في هذا الموضع من مصر وفي تلك اللحظات، لابد أن الرئيس السادات لا تشبع له عين مما تري، ولا أذن مما تسمع، ولا قلب ولا عقل.. في هذه البقعة جاءته ثقة الشعب المصري تجدد له الولاء، وتطلب إليه أن يمضي من 15 مايو، إلى 15 مايو أخرى، ومن 6 أكتوبر إلى 6 أكتوبر ثانية.. وجاءه زعماء لبنان يؤكدون أنه كان أبعد نظرًا وأصدق حكمًا وحكمة..

إن الله قد منح الرئيس السادات ما يشكره عليه.. بل يعتكف متفرغًا يمتن لله الذي أعطاه.. والذي أعطاه لنا وللأمة العربية فالحمد لله كثيرًا..!

☆ ☆ ☆

مين قتل مين؟

بالصدفة ظهرت لي مسرحية كوميدية باسم: «مين قتل مين؟» بطولة «أمين الهنيدي» بعد وفاة المشير عبدالحكيم عامر.. ولم يخطر على بالي أن تكون هناك أي صلة.. بالفعل لا توجد؛ فالمسرحية جريمة قتل عادية والجو مضحك. ولذلك لم يقل أحد شيئًا.. ولا جرؤ على أن يشير أو يثير... وجاءت كاميرات التليفزيون وصورتها؛ تمهيدًا لعرضها، ولكنها لم تعرض. وسألت، وقيل: إن وزير الداخلية في ذلك الوقت طلب منعها... وقيل: وزير الإعلام... وسألت الوزيرين فأنكرا ما قاله رئيس التليفزيون..

وهي كأعمال فنية كثيرة ابتلعها التليفزيون، أو ابتلعها الخوف والإهمال والصمت الرهيب. وليست هذه هي القضية، ولكن القضية التي أثرتُها هي: أن القاتل دائمًا ليس واحدًا.

وسوف تظهر مئات المسرحيات والكتب واللافتات واللوحات كلها تسأل: مين قتل مين في لبنان؟! ليس السوريون وحدهم القتلة، ولكن اللبنانيين أيضًا مجرمون في حق بلدهم وشعبهم.. إن أمثال فرنجية وشمعون مجرمو حرب.. ويجب أن يقولها اللبنانيون أنفسهم.. إن البعث السوري يقوم بأبشع ما عرف العرب في تاريخهم.. يقوم بدور اليهود في تصفية العرب.. إننا نرى عجبًا على حدود لبنان: نرى اللبنانيين في إسرائيل، وفي أسواق تل أبيب، وفي كباريهات حيفا. هذه حقيقة. إن اليهود أرحم على لبنان من سوريا، فهل هذه حقيقة؟ إنها تأكيد لجريمة من نوع عجيب: إن اليهود يريدون أن يثبتوا للعالم أن العرب في حاجة إلى من يعلمهم الأدب.. إنها إسرائيل «كرباج» الحضارة الغربية لترويض هؤلاء الوحوش العربية الذين يعيشون على أن لهم ماضيًا، وليس لهم مستقبل، وإذا كان لهم مستقبل فهو أن يقتلوا بعضهم البعض؛ لصالح البعض، ولمجد إسرائيل..

وفي مسرحية «مين قتل مين؟» كنت أقول: إنه في الجرائم الكبرى لا يوجد قاتل بل كثيرون: إنهم القاتل، والذي رضي عنه، والذي تفرج عليه، والذي لم يستنكر الجريمة. هل سوريا تقوم بتأديب لبنان على أنها سكتت على جريمة زعماء لبنان في حق لبنان؟.. هل لبنان تريد أن تؤكد أن البعث السوري مجرم لم يعط الفرصة؟.. وأن هذه هي الفرصة التي قدمتها إسرائيل..

اشهدوا يا ناس على ظلم الناس للناس باسم العروبة والسلام.. ونقول: روسيا.. ونقول: أمريكا.. ونقول: ليبيا.. إنهم كثيرون تسيل الدماء من أيديهم!

☆ ☆ ☆

رئيس وزراء الخنافس!

ما الذي جعلني أهتم بصفة خاصة بهارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا السابق، وزعيم العمال السابق أيضًا، فلا أنا من العمال، ولا أذكر لحزب العمال مواقف عظيمة مع مصر، ولا أعرف أحدًا من هذا الحزب، ولكن بعض المواقف في حياة هذا الرجل.. إنه من عشرين عامًا والناس حائرة في فهم ظاهرة «الخنافس» في الغناء والموسيقى، وقف هذا الرجل إلى جانبهم. وكنا حائرين هل ندين هؤلاء الشبان الذين أطالوا شعورهم، على الرغم من أن الخنافس نفسها ليس لها شعر؟ ولم نكن نعرف إلا أنهم شبان يغنون ويرقصون بطريقة خاصة، ولم نكن ندرك بوضوح أن الذي فعلوه يعتبر ثورة فنية كبري؛ لأنها المرة الأولى التي ترقص فيها أوروبا على أنغام موسيقى ليست واردة من أمريكا، فأمريكا قد احتكرت الرقص في الدنيا، واستحق هؤلاء الشبان أرفع النياشين وقد قدمها لهم ويلسون على يدي الملكة!

ثم إنهم من أبناء العمال أيضًا. وفي ذلك ثورة على أولاد الذوات الذين يؤلفون الرقصات والأغنيات، ووراءهم الشركات في أمريكا.

ويوم افتتح الخنافس أحد نواديهم الليلية، ذهب ويلسون وزوجته يرقصان: رئيس الوزراء وزوجته أستاذة الشعر في الجامعة يرقصان ويتمايلان، واندهشت وتساءلت فيما بيني وبين نفسي: ياه رئيس الوزراء يرقص ويتمايل؟! ولكن في أوروبا ممكن دون أن يلتفت أحد إلى ذلك.. وأعجبت بويلسون وزوجته، ونسيت أن إعجابي هذا مبالغ فيه، لأن أي رئيس وزراء في أوروبا يفعل ذلك.

وفي عهد ويلسون أيضًا حصلت الفتاة التي ابتكرت «الميني جيب» على أعلى النياشين أيضًا.. لأن هذه الفتاة قد نقلت مركز الأناقة إلى بريطانيا بعد أن كان ولايزال وسوف يبقى في باريس.. ولكنها استطاعت كما استطاع هؤلاء الشبان أن يدخلوا معًا ملايين الجنيهات إلى بريطانيا..

وفي الوقت نفسه استطاع ويلسون أن يوجه الدعوة عن طريق الملكة إلى عدد من «الشبان الساخطين» أنصاف الجامعيين؛ لحضور ولائم القصر، وكان هؤلاء الشبان الساخطون يتزعمون حركة «العصيان الأدبي» في الرواية والمسرحية والشعر.

إلا أن بعضهم قد رفض هذه الدعوة، بحجة أن ليست لديه «بدلة» تليق بالمناسبة.

ثم عندما ترك ويلسون منصب رئيس الوزراء في كامل قواه العقلية والصحية، ألف كتابًا يسخر من الوزارة ورياستها والحكم؛ لأنه يريد أن يستريح وأن يعيش بغير مشقة وبدون إكراه على عمل شيء أو قراءة شيء أو كتابة شيء!

☆ ☆ ☆

هاجمتني لبنان!

في مهرجان الشعر الذي انعقد في بغداد، لم يكن هناك سوى البكاء المنظوم على ما أصاب العرب. وكيف وقعت الهزيمة. وهي بالفعل شيء يبعث على البكاء. ولكن يجب أن يكون البكاء لبعض الوقت لا كل الوقت. وليس أسهل من أن يظل الإنسان يبكي. إنه استمرار لحالة واحدة، وانسياب لفترة واحدة.. وأسهل أن يبقى الإنسان على حالة واحدة من أن ينتقل من حالة إلى حالة أو ينتشل نفسه من هذه البركة الراكدة من الدموع. ومن مئات السنين، والشعراء يبكون على الذي راح منهم أو الذي توهموا أنه راح ولن يعود -ولاتزال الأغاني الحديثة صورًا أنيقة للبكاء القديم. وهي أنيقة لأن الذي يغنيها أنيق؛ ولأن الذين يصاحبون بالموسيقى في غاية الأناقة وكذلك المتفرجون ثم الأجهزة التى تنقل هذا البكاء الأنيق، هي أيضًا في غاية الفخامة.

بعض الشعراء في مهرجان بغداد تحركوا من البكاء على الذي كان، إلى الهجوم على مصر -هكذا. وكتبت أهاجم الشعراء، وأهاجم الذين يهاجمون مصر وينعون عليها ما حدث.

ولم أقل أكثر من أنني ضقت بكل هذا الذي يقال عنا. ولماذا قيل؟ إننا فعلنا ما يمكن عمله. ومات منا الألوف دفاعًا عن مصر والعرب. نحن ضحينا فما الذي فعله غيرنا؟! إنه خير لغيرنا أن يسكت، وأن يبكي على أهله وناسه الذين لم يفعلوا ما فعلنا.. ولم يبذلوا ما بذلنا.

وعادت صحف لبنان تهاجمني بأقلام مشبوهة.. أقلام صنعت بعيدًا.. وامتلأت بمداد سري، لتهاجم كل ما هو مصري، لا من أجل العرب، ولكن من أجل البنوك ودفاتر الشيكات والعمارات.. ومن الغريب أن أحدًا لا يخجل من ذلك. ومن العجب أننا جميعًا نعرف ذلك، ونخجل بالنيابة عنهم، ونضع رءوسنا في الأرض عندما نراهم، لا حزنًا عليهم، ولكن حزنًا على أن بيننا أناسًا، ليسوا لنا، ولكن علينا!.

لقد أسماهم الرئيس السادات خونة، وهم ليسوا خونة فقط، ولكنهم الخيانة نفسها - مع الأسف الشديد!

☆ ☆ ☆

..له حل

أمامنا ساسة أعظم دولتين في العالم، كيف يرون حجم المشاكل؟ وكيف يستعدون لحلها؟ باللقاءات والمفاوضات، والاختلاف والاتفاق، والاختلاف ثم الاتفاق نهائيًّا، وبعد الخبراء يجيء الوزراء، وبعد الوزراء يلتقي الزعيمان «ريجان» و«جورباتشوف». وكلاهما لا يريد الحرب؛ لأن الحرب سوف تهدم الحضارة الإنسانية في روسيا، وأمريكا، وأوروبا، وبقية القارات. وبسبب هذه المسئولية الخطيرة لابد أن يلتقي الرئيسان، ومن ورائهما ألوف ملايين البشر؛ لأن الحياة هدف وأمل، وأن الحرب خراب وجنون. ومثل هذا اللقاء ولقاءات أخرى قبل وبعد ذلك، لم تعطل الحياة في الدولتين.

ولا أطلق مواطن أمريكي الرصاص على روسي، ولا نسف روسي طائرة أمريكية.. ولا أمل عند أحد منهم أن تصبح أمريكا وسوفيتية، ولا أن تصبح روسيا إمبريالية.. ولكن من الممكن أن يتعايش الذين يختلفون في كل شيء: في الله، والكون، والكتب المقدسة، والحياة بعد الموت، والملائكة والشياطين، والروح.. ممكن.

ولم تتوقف عن الدوران حول الأرض كل الأقمار، تُصَوِّر كل نملة هنا وهناك وتبعث بمعلوماتها.. ولا سكتت أقمار التجسس، ولا اختفى الجواسيس والتنصت على النشاط السياسي والعلمي.. كل شيء على أشده. وهذا طبيعي.. ولكن لابد من الجلوس معًا والحوار والاتفاق على استمرار الحياة وبقاء الاختلافات المذهبية. وأساليب الحياة واستمرارها.. والمظاهرات ضد هذا اللقاء.. طبيعي أن يوافق أكثر الناس، وأن يعترض أقل الناس ولكن يجب أن يبقى الجميع أحباء في أمان ورفاهية.

ومن أجل الأمان على الأرض وعلى الكواكب الأخرى وبينها، لابد أن يبتسم جورباتشوف ويرد عليه ريجان بابتسامة أحسن منها.. وأن تتعانق نانسي ورايسا، وأن تستعرضا معًا الأناقة والذوق، وأن تقول إحداهما نكتة للأخرى.. وأن تسألها عن الأولاد.. وسوف تكتشف كل منهما أن مشاكل الأم والزوجة واحدة في كل الدنيا.. وأن الخلافات سياسية وليست إنسانية. وبذلك تتسع مساحات التفاهم بين أقوى الدول؛ من أجل استمرار السلام والحياة لألوف الملايين!

☆ ☆ ☆

صدقها هي!

عندما كان الرئيس «جيمي كارتر» في مصر سألته عن بعض الوقائع التي جاءت في كتاب زوجته وأيهما نصدق. فقال بسرعة: صدقها!

ولم أنتبه إلى معنى السرعة الخاطفة في هذا الرد. ولا ذهبت إلى أبعد مما قال الرئيس كارتر. فقد طلب مني أن أصدقها - وهو أدرى بزوجته - فصدقتها.

ولكن عرفت المعنى فقط منذ أيام عندما قرأت أن الاثنين قد أصدرا كتابًا معًا. عنوانه «كلها مكسب - كيف تستفيد بقية عمرك». وكتابهما عن اللياقة البدنية: الجري والمشي والرجيم.. واللياقة الروحية أيضًا. وكيف يمكن مساعدة الفقراء في أمريكا وفي 17 دولة أخرى.

وقد ظهر الاثنان في برامج كثيرة في التليفزيون والإذاعة، للدعاية لهذا الكتاب، وهذا الكتاب المشترك لا يعجب النقاد، ولكنه يعجب ملايين القراء العاديين؛ لأنه يتحدث إليهم.

والكلمة الآن للرئيس كارتر: تزوجنا من 41 سنة. ولم أعرف أننا مختلفان في كل وأي شيء إلا عندما اشتركنا في هذا الكتاب، فهي لا تقبل المناقشة، وهي لا تعطيني فرصة للكلام. حتى الأحداث التي وقعت لنا نحن الاثنين ترويها بشكل مختلف تمامًا، وهي تميل إلي الكلام الكثير والدخول في تفاصيل عديدة..

لم نتفق، ثم اهتدينا إلى الحل السعيد، هي تكتب فصلًا، وأنا أكتب فصلًا.. وكل واحد يُوقِّع بالحروف الأولى عند نهاية الفصل وكانت المشكلة أن فصولها أطول، لا مانع. ثم أنها أقل تواضعًا، وأن لديها إحساسًا قويًّا بأنها صاحبة فضل على كل الناس، وأنا أرى أن كل الناس لهم فضل على كل حياتي.. إلخ.

وابنتهما «إيمي» لا تأكل اللحوم. وتقول: إن أمها لا تستمتع بالطعام، وإنما «تزلطه» بسرعة.. ولكن الأم تقول: إن زوجها لا يستمتع بالطعام إنه يبتلعه!

وتقول الابنة: إنها عندما تكبر سوف تتذوق الطعام، وتبلعه على مهل كوالدها! وحوادث أخرى كثيرة متضاربة.

والخلاصة أن الرئيس كارتر يقول: إذا كنت سعيدًا في حياتك الزوجية. فلا تشترك مع زوجتك في تأليف كتاب أو في قراءته.. فإن مثل هذا العمل يعجل بنهاية هذه الحياة، ويفسد كل أوهام السعادة التي عاشها الاثنان معًا!

☆ ☆ ☆

اعتادوا الدمار!

اللبنانيون أنفسهم قد دخلت أعصابهم في منطقة الظل.. في الثلاجة.. فقد اعتادوا على الضرب والدخان، والزلازل الأرضية، والجوية، وتجدهم حريصين على أن يعودوا إلى لبنان بسرعة! فمنذ أيام قابلت عددًا من الصحفيين والإذاعيين كلهم حيوية وشباب وأناقة وابتهاج بالحياة.. كيف؟ يقولون لك: شو بدك تعمل - ماذا تريدنا أن نعمل؟.. أي أنهم يستنكرون دهشتك! فهم يعيشون ولابد أن يعيشوا، وما داموا قد اختاروا الحياة، فقد اختاروا العمل، وإذا عملوا فهم في غاية الإخلاص والحماس، ولابد أن يعودوا بما عملوا إلى بلادهم، ولكن ليس معنى أنهم يتوقعون الموت، أن يتصرفوا كأنهم موتي.. أو في الطريق إلى ذلك.. حتى لو حُكِم عليهم بالإعدام، فهم أحياء حتى يُنفَّذ الحكم. أي لماذا يسبقون الأحداث؟ ويموتون قبل الأوان - عجبي وإعجابي!

ناقشت أديبة لبنانية أصدرت كُتَيِّبًا عن الحب والعشق والجمال.. والذي يتصفح الكتاب يجد أنها هناك فوق في قمة الأرز حيث السماء صفاء، والجبال نقاء، والهمس واللمس.. وقد صفت الحياة حسابها مع كل الأحياء، فلم يبق إلا هذا الهناء الصوفي الجليل.. وإلا الحب: حب الناس.. حب الحياة.. حب الجمال والجلال.. كيف؟

كيف يستطيع الفنان أن يعزل نفسه تمامًا هكذا؟ كيف لا يرى الدخان؟ كيف لا يسمع الرصاص؟ وكيف يوقف نزيف الدم؟ كيف يكسر أسنان الندم ومخالب الألم؟ كيف؟

هم أيضًا قد اعتادوا على الدمار اليومي والقتل اليومي واليأس اليومي، والحكمة تقول: إن اليأس إحدى الراحتين - الراحة الثانية هي الموت.. فاليأس كالنوم، نوع من الموت المؤقت.. والصعود إلى القمم بعيدًا عن الحياة وقريبًا من الأبدية هو نوع من الموت.. يموت العقل ويصحو القلب.. ويتحول الشريان التاجي إلى قلم يكتب شعرًا مضيئًا قادرًا على خداع القارئ والكاتب معًا: بأن الحب ممكن، وأن الحب هو الدرع الواقية لكل ما في الدنيا من شقاء.. فالحب أقوى من خراب لبنان، والعزلة أعمق من المشاركة في إنقاذ لبنان من لبنان.. كيف؟

إنهم مثلنا قد اعتادوا.. والعادة قادرة على طمس الأحجام والأوزان، ومسح الألوان، وتجميد إيقاع الحياة: حب ولا حرب، هناء ولا فناء.. سبحان خالق جبال لبنان!

☆ ☆ ☆

لبنان: مشكلة!

دخلت مشاكل لبنان في منطقة الظل.. فلم نعد نراها بوضوح.. والذين يرون يختلفون ولماذا وكيف وما مصلحتهم؟ فالذين يتهمون لبنان شعبًا ودستورًا وحكومة وقوات أجنبية، هم أيضًا متهمون، فإن كانوا لبنانيين فالتهمة أعظم، وإن كانوا عربًا فليسوا أبرياء، فقد حدث كل شيء أمام أعيننا وبموافقة منا.. أو استخفاف أو لامبالاة.. وإن كانوا أجانب، فكيف نتوقع منهم أن يكونوا وطنيين أكثر من اللبنانيين؟!.

المصيبة أننا اعتدنا على الظلم اليومي في لبنان: قنابل وفخاخ وضحايا وبكاء وحرائق.. وأصبح من النكت أن نقول: إن حكومة لبنان بعد أن قضت على الشعب اللبناني راحت تستورد لبنانيين لتقتلهم.

ولأننا اعتدنا على ذلك فلم يعد أحد يهتز لما يحدث، وكأنه من الطبيعي أن يبقى لبنان محترقًا بأيدي أبنائه وأعدائه، وأن نرى ذلك ونغمض عيوننا؛ لأننا زهقنا.. ولأن عندنا نحن أيضًا مشاكل ومصائب من أنواع أخري، ويا روحي ما بعدك روح.. والحرب هناك معناها وجع القلب هنا، ووجع القلب هنا معناه الاستنزاف هناك، والاستنزاف هناك معناه وقف التنمية والبطالة.. وكلها قوى تضغط على مسيرة الأحداث العربية..

والكاتب الأمريكي «آرث ميللر» عندما تحدث عن جرائم الحرب قال: لا أحد بريء.. فالقاتل والساكت عليه والمتفرج عليهما ليس بريئًا!

والسيد «مناحم بيجن» عندما اتسخت يداه بدماء صابرا وشاتيلا قال: ولكن العالم كما تفرج علي مذابح هتلر ولم يفعل شيئًا من الممكن أن يتفرج على غيرها.. ولن يفعل شيئًا أيضًا!

والعالم يتفرج على الذي يجري دمًا ويتعلق دخانًا، وينهار سكنًا، ويتلطخ شرفًا، ولا يفعل أي شيء.. ولكي يتمكن العالم من أن يفعل يجب أن يساعده لبنان.. ولن يتحقق شيء قبل خروج قوات سوريا وإسرائيل وإيران.. وإذا خرجت فلن يستقر وضع لبنان دون تعديل في دستورها بشأن الأقلية والأغلبية.. ولن يتعدل الدستور دون مساعدة مالية واقية من العرب والعالم كله.. والطريق واضح جدًّا - ولكن أطول الطرق هو أوضحها وأكثر الطرق الواضحة صعوبة أن الأطراف لاتزال تتربص بكل من يحاول حقن الدماء وإرساء السلام وإعادة الرخاء والجمال إلى أجمل بلد عربي!

☆ ☆ ☆

لأننا اعتدنا عليها!

لو أعرف من الذين يكافحون أو يقاومون في لبنان!

لو أعرف من الذين يتمسكون بالجبل والأرز! لو أعرف من الذين يؤمنون بالله، ومن الذين يؤمنون بالشيطان! فالمصاحف والأناجيل التي يعلقونها بين المدافع طبعات مزورة - كتبها سلمان رشدي وشركاه.

فليس في الكتب المقدسة أن تقتل أخاك 14 عامًا.. فإذا لم تجده قتلت جارك، فإذا لم تجد جارك نسفت أي بيت، وأية سيارة، وأية سفارة!

لو كنت أعرف من الذي يبيع السلاح ومن الذي يحشوه بالنار، ومن الذي يمزق لبنان لكي يكون هناك أكثر من لبنان يقاتل لبنان!

لو كان أحد منا يعرف أن لبنان سوف تنتقل إلى كل البلاد العربية، فنحارب بعضنا البعض من أجل اللون والطبقة والمذهب والدين، وأن الذي يجري دمًا ويتصاعد دخانًا في كل لبنان، ليس إلا تجربة ناجحة لكل صور الفشل في التوافق والوفاق والتسامح والسلام؟! وأن غدًا أو بعد غد سوف تنتقل النار إلي كل الدول العربية؟! وأن النار إذا كانت لاتزال بعيدة عن معظم الدول العربية فالذي حدث بين العراق وإيران، صورة أخرى لمثل هذا النزاع الدموي المقدس - طبعًا مقدس؛ لأن اسم الله يذكر مع كل طلقة نار، ومع كل شهيد!.. اللبنانيون يتهمون بقية الدول العربية بأنها تفرجت على الذي حدث في لبنان! هل العرب متهمون واللبنانيون أبرياء؟! هل لا أحد بريء - فاللبناني مجرم والعرب أيضًا؟! ومن هؤلاء اللبنانيون الذين يهدمون لبنان على رؤوسهم؟ ومن هؤلاء اللبنانيون الذين هاجروا إلى كل البلاد العربية، والأوروبية، والأمريكية، واستأنفوا التجارة والشطارة، ثم بعثوا بفائض أرباحهم إلى لبنان ليستمر القتال؟

مصيبة كبرى: لقد اعتدنا على مذابح لبنان، وعلى مذابح الضفة الغربية.. اعتدنا عليها، ومللناها وزهقنا.. ولم تعد تهتز فينا شعرة واحدة لما يحدث.. ولذلك فنحن نتفرج بقرف.. بقرف لأن اللبنانيين هم الذين يفعلون ذلك، ولأننا لا نعرف ماذا نفعل. ولكل ذلك، ولأننا لا نريد أن نفكر لحظة واحدة في أن دورنا قادم، غدًا أو بعد غد!

☆ ☆ ☆

طابا لنا

مبروك على الذين فرحوا بعودة طابا إلى مصر - مصرية كانت ومصرية سوف تبقى.. ومبروك على الذين أتعسهم جدًّا أن تعود طابا إلى مصر، فقد آمنوا باستحالة عودتها.. لأن اتفاقية كامب دافيد كانت خرابًا على مصر وعلى الأمة العربية وأن فيها نصوصًا سرية، بمقتضاها لن تطأ جزمة الجندي المصري أرض بلاده.. وأن سينا لن تعود، وأن طابا هي لبن العصفور.

منذ شهور وأنا أتلمس السعادة في عقلي وقلبي.. فقد تحولت كل الأحكام بإعدامي برصاص المصريين والعرب، إلى شهادات ميلاد.. وحتى لو لم تكن كذلك؛ فما أرخص التضحية من أجل مصر وسلامة مصر.. وألف رحمة تنزل على أول شهدائنا يوسف السباعي، الرجل الرقيق المحب لكل الناس من كل لون ودين، وما لا نهاية له من الرحمات على شهيد الشهداء، وعظيم الضحايا أنور السادات. فكل الذي توقعه - ولم نكن ندرك ذلك- قد تحقق بالحرف الواحد.. بل إن الذي بلغه أنور السادات كان بالحرب وبالسلام الحكيم، وكبرياء الفلاح المصري، وفلسفة السوري - فلم يحدث أن اجتمعت الوحدة العربية في دم واحد، كما حدث في قلب أنور السادات: أمه سودانية وأبوه سوري، وهو رئيس مصري!

إن عودة طابا المصرية هي آخر نقطة في سطر حياة أنور السادات.. ولولا مرونة حسني مبارك وضبطه لنفسه، وإيمانه العميق بأن السلام هو أغلى ما وصلنا إليه، وأغلى ما يمكن أن نحرص عليه، ولولا صبره الطويل العميق؛ لظلت طابا مثل «دانتسج» التي كانت الزناد الذي أشعل الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا وبولندا.

فنحن ارتضينا التحكيم وإسرائيل أيضًا، ككل الدول المتحضرة..

تمنيت أن أملأ عيني من النظر إلى العلم المصري صاعدًا ساميًا شامخًا، ولكن اعترضتني وجوه الكذابين والمنافقين الذين يطبلون ويزمرون، وقلوبهم تعتصرها المرارة.. فقد تمنوا أن تظل طابا نقطة ضعف في مصر، وهدفًا قائمًا لهدم النظام، واستمرار الصراعات، واستنزاف مصر: جيشًا وشعبًا.. وسياسة واقتصادًا.. حتى يتحقق الانهيار الكامل أمام أصحاب الذقون الطويلة المتهوسة شيعيًّا وشيوعيًّا!

☆ ☆ ☆

لا شعبية لهم!

الأطباء والمدرسون ليست لهم شعبية عند الأطفال. فالطبيب يعطي الحقن والدواء المر، ويمنع الطفل من اللعب ومن كل ما يحب، والمدرس ينصح ويهدد - ينصح بالتوقف عن اللعب، والجلوس في البيت والمذاكرة، وإلا رسب في الامتحان، وإلا فلن يعطيه أحد مصروفًا.

والشعوب كالأطفال - والحكام هم الأطباء والمدرسون والمصلحون، والخوف هواء يشمه الجميع - والعصا لم تظهر في يد واحد منهم.

والطبيب الذي يمنع المريض من أكل اللحم وشرب السجائر، ليس وحشًا لا قلب له ولا رحمة عنده. والمدرس الذي يطلب من التلميذ أن ينكفئ على الكتاب، وأن يفرك عينيه، وأن ينام جالسًا وواقفًا، ليس عدوًّا للنوم وحاقدًا على الذين يعرفون الراحة. ولكنه ناقوس يدق للخطر.

ومن المناسب أن ننظر حولنا: دول البترول وإسرائيل.. أما دول البترول فقد حذفت مشاريع كثيرة، واختصرت من ميزانياتها ألوف الملايين، وتهدد بطرد أكثر من مليون من العمال الأجانب.. فالبترول انخفضت أسعاره، وحرب العراق مع إيران قد أكلت ما تبقى من مليارات، والبترول سوف يوالي الهبوط، والحرب لن تتوقف، ودول الخليج التي لم تشترك في الحرب، تشارك الآن في ويلات الحرب.. فإذا كانت قنابل إيران قد قتلت عراقيين وهدمت بيوتًا، فإن تكاليف هذه الحرب قد هدمت مؤسسات خليجية وقتلت من الخوف والفزع عشرات الألوف أيضًا.

وإسرائيل التي تنفق عليها الجاليات اليهودية الأمريكية والأوروبية، قادرة على أن تمدها بفلوس الدنيا في أي وقت، هي الآن تربط الأحزمة - كل يوم تضيف حزامًا على الطعام والشراب والخدمات؛ لأنها يجب أن تتوافق وأن تتوازن، فهي في حالة حرب دائمة، وشعبها يجب أن يعيش. والشعوب اليهودية في إسرائيل تصرخ وتحتج وتضرب.

ومادامت ضروريات الحياة متوافرة للشعب، فالكماليات لا تهم بعض الوقت، ولا يمكن إصلاح أو تعديل أو تغيير مسار خاطئ، في يوم وليلة - فقليل من الصبر أيها المصريون!

☆ ☆ ☆

شياطين حمر؟!

كانت الشيوعية تتوقع أن ينتهي العالم كله، وتبقى موسكو والكرملين.. وأن تتلاشى كل المذاهب السياسية، والأديان، ولا تبقى إلا الشيوعية..

وبعد سقوط الرأسمالية في كل مكان تقوم القيامة، وتدخل الطبقة العاملة الجنة.. وعلى باب الجنة عربة يجرها ألف حصان، اسمها عربة التاريخ.. يتوقف التاريخ ويضرب سلامًا كبيرًا لكارل ماركس الذي يتوقع نهاية كل شيء.. إلا وجه لينين ذي الجلال والاحترام!

مات الاتحاد السوفيتي دون أسف عليه.. فهذه الدولة قد قتلت من أبنائها بأيدي أبنائها في هذا القرن 120 مليون نسمة.. وهذه الدولة حكمت شعبها بالتجويع والتخويف.. وهذه الدولة تولت الإرهاب ومحاربة الأديان في العالم.

وسقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي هو الحادث الرابع في هذا القرن، الحادث الأول: هو الحرب العالمية الأولى، والحادث الثاني: هو الثورة البولشفية في روسيا، والحادث الثالث: هو الحرب العالمية الثانية.

الحرب العالمية الأولى أقرت النازية في ألمانيا، والبولشفية في روسيا.. والحرب العالمية الثانية هدمت النازية، وهزمت إمبراطورية الشمس المشرقية في اليابان، وجعلت ستالين يغزو أوروبا الشرقية، وجعلت «ماوتسي تونج» إمبراطورًا على الصين.

أما الآن فالدنيا تغيرت تمامًا - شكرًا لآخر الشيوعيين جورباتشوف. لقد أنهى الحرب الباردة. وكانت أمريكا قد أنفقت على هذه الحرب أكثر من ألف ألف مليون دولار. وكان أملها إبعاد الشيوعية عن العالم كله.

وحدثت المعجزة الاقتصادية في ألمانيا، وفي اليابان.. وأوروبا الآن تتحد فيها المصالح والمعاملات، وتقف عملاقًا في وجه أمريكا واليابان.

والأمريكان عندهم شعور جديد يبعث على القلق.. هو أنهم تعبوا من مشاكل أوروبا، وزهقوا من مشاكل الكرة الأرضية، ويريدون أن يقفلوا عليهم الباب سياسيًّا؛ ليعيشوا في عزلة وانطواء وهدوء.. وهذا شعور خطير، فمن الممكن أن يفاجأ الأمريكان بأن قوة جديدة ظهرت في العالم، وفي روسيا بالذات.. فثورة جورباتشوف على عكس الثورات السابقة لم تأكل أبناءها.

وقد كذب كارل ماركس في كل ما قاله إلا شيئًا واحدًا، هو: أن السياسة تولد من الاقتصاد.. والاقتصاد الجديد في روسيا الدولة العظمى من الممكن أن يؤدي إلى ظهور شياطين حمر جدد - من يدري؟!

☆ ☆ ☆

إدمان دولي

دولتان في العالم أدمنتا المستقبل: أمريكا وروسيا.

أما روسيا فقد أفاقت من إدمان المستقبل الذي كانت تتمنى أن ينتهي بانتصار الطبقة العاملة وإلغاء الطبقات، وتوقف عجلات التاريخ؛ لأن جنة العمال قد تحققت في روسيا بسقوط أمريكا وكل الدول الرأسمالية المنحلة، ومحو كل الأديان.

والشيوعية قد طردت الله وموسى وعيسى ومحمدًا وبوذا وكونفوشيوس من بلادها، ورائد الفضاء «جاجارين» عندما صعد إلى مائتي كيلومتر في الفضاء، عاد إلى الأرض ليقول بسذاجة: ولكني لم أجد الله!

والشعوب التي خلعت أغلال الشيوعية من يديها ورجليها وعقولها تحن إلى الماضي: إلى الملوك والكنائس والمساجد.. وقد ظهرت العائلات النبيلة في أوروبا، والملوك السابقون يطلبون العودة إلى بلادهم.. فالماضي لم يذهب.. وإنما هو موجود بشكل ما.. وفي اليابان يعودون إلى العلم الأبيض وعليه قرص الشمس. وكان الدستور الياباني المصنوع في أمريكا قد حرم عليهم ذلك.. فكان اليابانيون لا يرفعون العلم، ولا يقفون تحية له ولا للعلم الأمريكي.. والآن أعادوا العلم.. وأعادوا النشيد القومي الذي يدعو لجلالة الإمبراطور - وكان ذلك ممنوعًا؛ لأن الإمبراطور هو الذي أمر بالحرب وأمر بالاستسلام!

ونحن في مصر قد ألغينا الألقاب، ولكن لانزال نخاطب بعضنا البعض بكلمة يا باشا.. والوزراء نقول لهم: سعادتك ومعاليك.. والرئيس مبارك يسمع من يقول له: يا فخامة الرئيس.. من المصريين ومن الأجانب.. أذكر أن الملكة السابقة فريدة قد خاطبها أحد البوابين وهو ينقل لوحة لها، فقال: أين أضع هذه اللوحة يا مدام..؟ فغضبت وقالت له: أنا سمعتك تقول لبواب آخر يا باشا.. فهل هو باشا وأنا مدام؟! قل لي جلالتك.. أو قل لي يأفندم!

ونحن في أحاديثنا العادية نقول: مصطفى بك - أي مصطفى أمين.. وعثمان بك.. أي عثمان أحمد عثمان.. وفؤاد باشا.. أي فؤاد سراج الدين. فالعالم كله يحن إلى الأبهة والفخامة والحرية في اختيار الذين يحبهم بكامل حريته.

ولكن نحن لسنا جادين.. يكفي أن تتلفت حولك عند سماع واحد يقول لواحد: بأقول لك إيه يا باشا - إنهما اثنان من ماسحي الأحذية!

☆ ☆ ☆

إن كان آنيس منصور؟

لسوء فهم ما كتبت عن الرئيس حافظ الأسد، فقد طلب الرئيس إلى وزير الخارجية فاروق الشرع أن يرفع الأمر إلى القضاء المصري.. وهدد السيد فاروق الشرع بالانسحاب من مائدة العشاء التي أقيمت على شرفه في القاهرة.

وكان لابد أن أكتب موضحًا موقفي وموضحًا إعجابي الحقيقي بالرئيس حافظ الأسد، ولم يكن التوضيح واضحًا، ولا الإعجاب مقنعًا. وظل الحال علي ما هو عليه.. حتى كان المؤتمر الصحفي الأخير في دمشق.. والتفت الرئيس حافظ الأسد إلى الأستاذ مكرم محمد أحمد، وسأله إن كان هو الأستاذ أنيس منصور؟.. فأشارت كل الأيدي إليَّ حيث أجلس، ورفعت يدي أؤكد ذلك.. وترددت في أن أقف وأقول له: والله يا سيادة الرئيس أنا من المعجبين بأسلوبك في العمل السياسي.. هادئ الأعصاب، طويل النفس، حاد النظر والسمع والشم لاتجاه الريح التي تهب من موسكو، ثم من واشنطن، ومن تل أبيب. وأنا معجب بالرئيس الأسد - حقًا وصدقًا - لأنه سياسي عملي واقعي.. يحسبها جيدًا..

والكرة الآن في الملعب السوري.. وقد ذهب جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا يتفرج على الفريق القومي السوري وهو يلعب بقيادة الكابتن الأسد.

ثم ذهب إلى تل أبيب يتفرج على الفريق الدولي وهو يلعب بقيادة شامير، وعشرين حكمًا، وأكثر من كرة، وأكثر من شبكة.

ورغم كل ذلك فالرئيس بوش متفائل، وجيمس بيكر أيضًا.

وإذا كان الرئيس عبد الناصر قد قدم لإسرائيل سيناء والجولان والضفة والقدس، فإن الرئيس عرفات قد قدم لإسرائيل كل العرب الذين أجمعوا على كراهية عرفات وصدام، واستعدادهم للجلوس مع إسرائيل!

والآن لم يتحدد موعد المباراة.. ولم يتحدد الاستاد.. ولا عرفنا أسماء اللاعبين والحكام.. أما الكاميرات التي استعدت في كل العواصم. فلا يدل ذلك إلا على يقظة صحفية.. وليس على نتائج المباريات ولا عدد الأهداف.. ولا إن كانت من أجل الكأس أو الدوري.. فإسرائيل تريد أن تلعب بلا أهداف، وسوريا تريد الأهداف.. فالكرة أجوال.

هل أنت متفائل؟ لا - أنا «متفائم»!

☆ ☆ ☆

شيكولاتة للسادات؟!

الهدية عند بني إسرائيل: رمزية..

فأنا رأيت موشي ديان يقدم للرئيس السادات علبة شيكولاتة «12 قطعة»، ويقول بمنتهى الخجل - خجلي أنا-: هذه لأحفادك يا سيادة الرئيس!

والسيد بيجين قدم للرئيس السادات تمثالًا صغيرًا عن «الذئب والحمل» وتحته آية من التوراة تقول: ويوم ينام الحمل في حضن الذئب!

ورأيت السيد «اشتراوس» الذي اخترع أهله البنطلون الجينز وهو المبعوث الأمريكي للسلام في الشرق الأوسط قد أهدى د. مصطفى خليل رئيس الوزراء حذاءً في عيد ميلاده وهو يقول: الحذاء معه فاتورة بأن ثمنه.. أقل من سبعين دولارًا.

فالقانون الأمريكي ينص على أن الهدية إذا تجاوزت هذا المبلغ يجب ردها للحكومة؛ لتباع في مزاد علني!

وإسحاق نافون رئيس إسرائيل السابق أهدى الرئيس السادات قصة النبي يوسف عليه السلام - وهو أول مستشار للأمن القومي في التاريخ، قبل كيسنجر بخمسة وثلاثين قرنًا - القصة كتبها «يوسف وهبي» وهو خطاط كان يعمل في أخبار اليوم، ولم نعرف أنه يهودي إلا عندما قرر الهجرة إلى إسرائيل.

أما «دافيد ليفي» وزير خارجية إسرائيل فقد استمعت إليه ثلاث مرات في لحظة واحدة.. يتكلم بالعبرية، و«مارسيل ساجيف» المصرية الإسكندرانية تترجم إلى العربية، ومستشاره السياسي الروائي «أوري» يحدثني عن كتاب يؤلفه عن دافيد ليفي تلك الشخصية الفذة.

قال دافيد ليفي وهو يقدم هديته لعمرو موسى وزير خارجية مصر: إنها لوحة للفنان: أجما - وكلمة أجما معناها بحيرة - واللوحة لها صفات البحيرة.

ونزعوا الورق من اللوحة وهي أوب -آرت - أي من الفن الذي يعتمد على الزوايا البصرية المختلفة.. وهي خطوط منتظمة متقاطعة.. لا تعرف كيف تنظر إليها؟.. معدولة، مقلوبة، بالطول بالعرض، فمن جميع الزوايا لها منظور واحد!!

قال أحد الخبثاء: إن اللوحة مثل القرار 242.. تقرؤها من الشمال كما تقرؤها من اليمين أو من فوق لتحت أو من تحت لفوق.

وبدون اتفاق بيننا جميعًا ضحكنا على اللوحة النكتة، أو اللوحة اللغز.. أو السلام الإسرائيلي!

☆ ☆ ☆

كأعداء الدولة

نحن نراقب الملوك والرؤساء كأشد الناس عداوة للدولة.. فكل خطواتهم وحركاتهم ونظراتهم محسوبة بالثانية..

أذكر أنني كنت في لقاء مع الرئيس حسني مبارك في ساعة مبكرة، فوجدت الرئيس بملابسه كاملة وكان في غاية الحيوية.. فداعبت الرئيس قائلًا: ما رأيك لو تتمشى قليلًا يا ريس؟

فضحك قائلًا: أين؟

قلت: طبعًا هنا أمام الباب!

ولم يكد الرئيس يخطو أمام الباب، حتى همس عشرات من رجال الأمن في تليفوناتهم أن الرئيس قد خطا خطوة أمام الباب الداخلي.. فعرف ذلك ألوف من رجال الأمن.. ولو خطا خارج البيت لعرف عشرات الألوف.. ولو ركب السيارة لعرف مئات الألوف.. فالرئيس ليس مثل بقية خلق الله يستطيع أن يمشي في الشارع على كيفه، لا في مصر ولا خارجها.. وخارج مصر ينزل من الطيارة، إلى السيارة، إلى الفندق، ومن الفندق، إلى السيارة، إلى الطيارة.. ويوم حاول الرئيس في لندن أن يتفرج على أحد محلات الملابس لكي يلمس بيديه القمصان والجوارب ويتأكد أن الصناعة المصرية أحسن وأرخص.. يومها كان الأمن المصري والإنجليزي في محنة.

وكذلك السيدة سوزان مبارك فهي في تمام الصحة والعافية والنضارة، وتحسدها ملايين السيدات على أن وزنها لم يزد جرامًا واحدًا في عشرين عامًا.. وهي كل يوم بمنتهى الحب والصدق، تضع مقعدًا صغيرًا في حديقة لطفل، بيده كتاب.. وبذلك تضيف نورًا إلى مستقبل مصر.

ويتضايق بعض الحزبيين من أن الرئيس مبارك عندما يلتقي بالأعضاء، يقف يكلم هذا ويسأله عن حاله أو يستمع إليه، ويداعب هذا، ويتبسط مع ذاك. ويظن هؤلاء الحزبيون أنهم يضيعون وقت الرئيس.. والحقيقة أن هذه متعة للرئيس وفسحة.. فحياة الرؤساء خالية.. ومعظم الوقت لا يسمع إلا ما يوجع القلب والبطن.. أما الأخبار السارة فلا تجيء أو تجيء متأخرة.. ولقاء الرئيس بالناس ورؤيتهم وملء عينيه بهم وأذنيه، هي المتعة، فكل القمم باردة ضيقة خالية من البهجة والسرور وراحة البال!

☆ ☆ ☆

بوش منتصرًا

لم يحدث في تاريخ الولايات المتحدة أن استطاع رئيس أن يحقق في فترة رياسته كل إنجازات الرئيس جورج بوش (الأب).. فقد انتصر في كل المعارك، ونجح في إدارة كل الأزمات.

ولم يحدث أن شهد رئيس في آخر أيام رياسته مثل هذه الانتصارات العظيمة على أعدى أعدائه - انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وكل الدول الشيوعية، وبذلك تنتهي الحرب الباردة التي كانت تكلف أمريكا 160 ألف مليون دولار سنويًّا. ولم يحدث أن استطاع رئيس أمريكي أن يدير أزمة مثل أزمة الخليج بهذه البراعة النادرة.. فلا غلطة واحدة عسكرية أو سياسية أو قانونية. ولا فلتت منه كلمة واحدة ليست موزونة بميزان الماس.. ولا كلمة يا ناس.

وكما نجح جورباتشوف عالميًّا، ولم ينجح داخليًّا بعد، فالرئيس الأمريكي نجح عالميًّا، وأمامه مشاكل في حجم الجبال: الضرائب، والتعليم، والعلاج، والمواصلات، والبطالة.. وتَغَيُّر في المزاج الأمريكي الذي يريد أن يعيش في هدوء، ينعم بالرخاء بعد أن انهزمت الشيوعية.

وتغيير المزاج هذا، مشكلة شعبية معروفة وخطيرة أيضًا.. فهذا المزاج القومي هو الذي أسقط تشرشل العظيم بعد أن تحقق له النصر العسكري على هتلر. وأسقط ديجول أيضًا.

فالناس في زمن الأوبئة يحتاجون إلى أطباء، وفي زمن الحرب إلى جنرالات.. وفي زمن السلام إلى مهندسين ومعلمين.

وموقف الرئيس بوش من عملية السلام في الشرق الأوسط ورَفْع العصا في وجه إسرائيل موقف في غاية الشجاعة.. ثم تذكيره للشعوب اليهودية في إسرائيل أن كل إسرائيلي يتقاضى من ضرائب الشعب الأمريكي ألف دولار سنويًّا على الأقل، وأنه مستعد أن يقف وحده ضد الضغوط اليهودية في الكونجرس، وفي التليفزيون، والصحف، والبورصة.. وإسرائيل تتطاول على أمريكا، فهي لا تستطيع أن تعيش بغيرها يومًا واحدًا في الشرق الأوسط.. وسوف تتراجع إسرائيل أمام بوش، وسوف يعتذر له أشكال وألوان من الناس، ولكنهم سوف يتربصون به.. فهل يحترم الأمريكان أنفسهم، ويقفون وراء بوش لأربع سنوات أخرى؟! أعتقد أنهم سيفعلون.

☆ ☆ ☆

دولة غنية

روسيا ليست دولة ضعيفة.. إنها دولة غنية قوية.. وسوف تكون أقوى وأغنى.. فأسلحتها لا تزال أكثر من الأسلحة الأمريكية.. عندها أربعة ملايين جندي، وستون ألف دبابة، و23 ألف صاروخ نووي، وثمانية آلاف طائرة مقاتلة، ومصانع للذخيرة، وقدرة على صناعة طائرات أكثر تطورًا.. بينما أمريكا عندها مليون جندي، و16 ألف دبابة، و15 ألف صاروخ نووي..

وكما كانت قوة روسيا مخيفة، فإن ضعفها مخيف أيضًا.. وقد أحدث جورباتشوف ما لم يكن يحلم به أحد.. أو كان يحلم به، ولم يتصور أنه سيتم بهذه الصورة الرائعة: انهيار الشيوعية خارج روسيا وانهيارها في داخلها.. مع استعداد هذه الشعوب إلى أن تستسلم للطغاة الجدد، كما اعتادت سبعين عامًا على السلبية والاستسلام.

وسقوط الانقلاب ضد جورباتشوف هو انتصار للحرية التي ذاقت الشعوب السوفيتية عينات ولحظات منها.. سبحان مغير الأحوال! لقد وصف جورباتشوف الشيوعيين بأنهم الرجعيون - وكانت العادة أن توصف الديمقراطية بأنها الرجعية، والشيوعية بأنها التقدمية!!

وتمن علي رؤساء الديمقراطيات الغنية في العالم ألا يدفعوا بجورباتشوف العظيم إلى أن يزحف على ركبتيه إلى البيت الأبيض، ويقول: حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة!

وبذلك يتكرر ما شهدته أوروبا في قرية كانوسا الإيطالية؛ فقد اختلف الإمبراطور الجرماني «هيتريش الرابع» (1050 - 1106) مع البابا «جريجوري السابع»... البابا طرده من الكنيسة والإمبراطور خلع البابا، وانضم الشعب الجرماني إلى البابا ضد الإمبراطور.. فذهب الإمبراطور نادمًا تائبًا ووقف أمام المقر البابوي تحت الجليد ثلاثة أيام.. حتى أطل البابا من شرفة القصر وعفا عنه، ثم باركه مسيحيًّا طيبًا ذليلًا ذلولًا!

وقد اعتقلوا جورباتشوف ثلاثة أيام ولم يركع.. فقد توهم المنشقون أن زعماء الغرب سوف يجرجرونه إلى كانوسا.. لأنه بعد أن حرر ألف مليون لم يعودوا في حاجة إليه!

☆ ☆ ☆

سيد العملات

الدولار سيد العملات، وفي روسيا سيد أسياد العملات كلها.. والسعر الرسمي للدولار هو ما يعادل الروبل.. ولكن في السوق السوداء يساوي أربعين أو خمسين أو ستين روبل!

والفنادق كلها بالروبل.. ولكن المطاعم كلها بالدولار..

وأكثر الناس تسابقًا على الدولار كبار الرسميين الذين لديهم حكايات عن الذي حدث في روسيا في ظل الإرهاب الشيوعي، وفي مقدمة أصحاب القصص رجال المخابرات الروسية.. فعندهم أسرار عن تدخل الروس في كل المؤامرات في القارات الخمس.

والأمريكان يريدون أن يعرفوا من الذي اغتال الرئيس كيندي؟ ومن الذي اغتال كثيرين في هذه الدنيا؟ وكيف كان تدبير المؤامرات في ألمانيا الشرقية ضد إسرائيل والعرب؟

وأول من ذاق طعم الدولار السيد «شيفرنادزه» وزير الخارجية، وهو أول المنشقين على جورباتشوف، ومذكرات شيفرنادزه اسمها: «المستقبل للحرية»، وتقاضى عنها مليون دولار.

وجاءت مذكرات بوريس يلتسين رئيس جمهورية روسيا والمنشق الثاني علي جورباتشوف. المذكرات اسمها «رغم أنفي» وتقاضى عنها مليوني دولار!

ثم مذكرات زوجة جورباتشوف وعنوانها: «عندي أمل» وتقاضت مليون دولار.

والآن قد توارى بوريس يلتسين مع أحد الصحفيين الأمريكان يملي عليه مذكراته عن انقلاب أغسطس مقابل ثلاثة ملايين دولار.

وجورباتشوف نفسه قد كتب مذكراته في 74 صفحة عن ثلاثة أيام من أغسطس الماضي.. قضاها حبيسًا في بيته الصيفي على البحر الأسود، وسوف يسافر الناشر الكبير مردوك للقاء الرئيس السوفيتي.. أما هذه المذكرات، وكذلك فيلم الفيديو الذي التقطه زوج ابنته فقد هربهما جورباتشوف إلى خارج روسيا؛ خوفًا من أن يقعا في أيدي زعماء الانقلاب.

ونصيب جورباتشوف عن هذه المذكرات ثلاثة ملايين دولار! أما شركات السينما الأمريكية فقد تعاقدت مع عشرين من رجال المخابرات السوفيتية الذين طردهم جورباتشوف؛ تمهيدًا لإنتاج أفلام عن الجاسوسية مقابل عشرين مليون دولار!

لقد ارتفعت سعر السفالة والندالة والفضائح إلى السماء!

☆ ☆ ☆

مثل ماذا؟

الناس يتساءلون: مثل ماذا في التاريخ؟

أي ما وجه الشبه بين هذا الذي يفعله صدام حسين، وما ارتكبه طغاة آخرون؟.. لعل الناس يفهمون أوضح. وبسرعة تتوارد أسماء: هتلر، وستالين، وجنكيز خان، وهولاكو، ونيرون.. والناس يستريحون إلى مثل هذه الأسماء؛ لأنها تجعلهم يتوقعون النهاية نفسها.

والناس لأنهم اعتادوا على المسلسلات التليفزيونية التي تعرض المشاكل التي تتعقد؛ فإنهم يتوقعون أن تنحل على صورة ارتباك شديد في الحلقة الأخيرة. وعلى الرغم من أن الناس يتعجلون حل العقد؛ فإنهم يضيقون بهذه «الكلفتة» في آخر الحلقات!، ويتهمون المخرج بأنه يطيل الحلقات لكي يكسب أكثر.. فالحلقات تباع بالمتر.. كذا متر في الدقيقة.. ولذلك فالناس يستعجلون الرئيس بوش مخرج مسرحية «درع الصحراء» أن يخلصنا من التسخين والتعبئة، ثم «مط» الحلقات وإدخال أطراف كثيرة تجعل متابعة الأحداث صعبة.. فالرئيس بوش قد حصل على تأييد عالمي من كل الدول ومن كل الهيئات الدينية.

ولكن بوش عنده حسابات كثيرة.. وليس بوش وحده.. ثم هو ينتظر ثمرات الحصار وإرهاق أعصاب الرئيس صدام.. وإثارة الشعب العراقي عليه.. وغضب جيش الأطفال وصغار الشبان والأسلحة القديمة في أيديهم.. بعض هذه الأسلحة متخلف جدًّا.. وبعض الصواريخ من أحفاد القاهر والظافر - وهو عبارة عن حيوان ملتهب ينطلق في الفضاء بلا عقل.. أي أنه قوة غاشمة لا تستطيع أن تواجه الأسلحة الأمريكية المتطورة جدًّا والمرصودة والمحمولة إلكترونيًّا والتي تهتدي بالأقمار الصناعية والمحطات الرادارية والمتابعة الأرضية.

وقد توجهت الإدارة الأمريكية بالشكر العميق إلى دولتين: إلى مصر؛ لأنها عملت كل ما تستطيع بالذوق مع صدام حسين، فلما يئست لجأت إلى القوة التي أقرتها الجامعة العربية.. وإلى إسرائيل لأنها لم تفعل شيئًا.. ولو ألقت إسرائيل طوبة واحدة على العراق؛ لأفسدت ولخبطت الدنيا. وما حاجتها إلى ذلك، إذا كانت أمريكا وحلفاؤها سوف يقومون بكل العمل الذي يهدّ حيل صدام وشعبه؟!.

وليس أسهل من قرار: اضرب يا ولد!

وليس أصعب من قرار: عِنْدَكْ.. كفى ضربًا!

☆ ☆ ☆

صبر أيوب

الرئيس حسني مبارك عنده صبر أيوب - وزيادة شوية - وهذا واضح من مجرد أن يسمع واحدًا يسأله إن كان الأمريكان سيحتلون رأس بناس!!

ومعنى هذا السؤال أن صاحبه لا يصدق ما أعلنه الرئيس مبارك، ومن قبله الرئيس السادات عن أن وجود قوات أمريكية على أرض مصر ممنوع.. ومرفوض.. لقد حاربنا الوجود السوفيتي الذي كان يحرم على الضباط المصريين دخول ثكناتهم.. انتهى.

ولكن عندنا نحن المصريين الكثير من سوء الظن.. فعندما انتصرنا في حرب أكتوبر.. قيل إنها تمثيلية فلا حاربنا ولا مات أحد.. ولما تسللت إسرائيل إلى الضفة الغربية.. قيل إنها أيضًا تمثيلية.. ولما انتصرنا؛ قيل تمثيلية أيضًا.. ولن ينسحبوا فهناك اتفاقيات سرية.. ولما أخطأ أحد الجنود فقتل أطفالًا أبرياء، قيل إنه بطل شهيد وإن إسرائيل هي التي دفعت بالأطفال إلى التسلل إلى حدود مصر.. ولم يكن الأطفال يتسللون بين أسلاك الحدود، بل كانوا في داخل مصر وعلى بعد أربعين كيلومترًا من الحدود.. ثم لن يخرجوا من طابا. هل معقول أن يخرجوا؟! وخرجوا من طابا.. وإذا كانوا قد خرجوا؛ فلن يخرجوا من الفندق.. مع أن وجود بعض الموظفات الإسرائيليات سببه أنه لا توجد أماكن لإعاشة المصريين والمصريات.. أما الإسرائيليات فهن يقمن في إيلات التي تبعد أمتارًا عن الفندق.

ومن عجائب أمر المصريين أن الذين أعلنوا في بغداد وفي دمشق وفي طرابلس باستحالة خروج إسرائيل من طابا، كانوا أول من ذهب إلى طابا يهتفون لحكمة الرئيس مبارك وعظمة مصر؟!

ويقال: إن إسرائيل اشترطت إبقاء مستعمرة العراة.. ويقال بل إن بعض الفتيات الإسرائيليات مصابات بالإيدز - عن عمد- لنقل العدوى إلى المصريين.. هذيان وسوء ظن بمصر وحكمة مصر، وما حققته بالعقل وبُعد النظر!

يا طول بالك يا ريس وأنت تستمع إلى آخر فلول الانهزاميين والمتشككين في كل ما قيل ويقال عن إنجازات مصر!

☆ ☆ ☆

أم علي..

كان العشاء على مائدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، عندما طلب مني الرئيس مبارك أن أتحدث عن خلفية تاريخية «لأم علي» - ذلك الطعام المصري اللذيذ.

فأم علي هذه هي الزوجة الأولى للصالح نجم الدين أيوب، أما الزوجة الثانية فهي الفتاة الأرمنية الجميلة «شجرة الدر» وشجرة الدر اسمها «أم خليل» وكانت شخصية قوية، وهي عندما طلبت من زوجها أن يطلق أم علي وعدها بذلك، ولكن فوجئت به يستعد للزواج من واحدة ثالثة، فطلبت من خادماتها أن يهجمن عليه في الحمام، وأن يقتلنه بالقباقيب، واستطاعت أم علي أن تنتقم من شجرة الدر، وأن تقضي عليها بالقباقيب أيضًا، وألقوا جثتها عارية بالقرب من القلعة عدة أيام واحتفلت أم علي بهذه المناسبة. فقدمت للفقراء ألوف الأطباق من اللبن والسكر والخبز.

أما طبق أم علي نفسها فكان مختلفًا قليلًا: فقد دفعها الانتقام الشديد إلي أن قطعت حلمتي ثديي شجرة الدر، ووضعتهما في طبقها وأكلتهما، واعتاد الناس بعد ذلك أن يضيفوا الزبيب والجوز واللوز إلى الطبق اللذيذ!

وأذكر أن السفير السوفيتي الأسبق كان يتناول طعام العشاء في بيت وزير الخارجية الأسبق «إسماعيل فهمي»، وجلست بين السفير السوفيتي والسفير الأمريكي، وكان السفير السوفيتي يشكو من أن له كرشًا، وأنه لا يعرف كيف يتوقف عن أكل الحلويات في الحفلات الرسمية. ثم جاء طبق أم علي، فقال: إلا هذا!!

والكرواسان مثلًا -وهي كلمة فرنسية معناها الهلال- له أيضًا قصة دامية، وهو خبز نمساوي الأصل صنعه النمساويون بعد أن صدوا القوات التركية الزاحفة على فيينا سنة 1683.. فكانوا يصنعون هذا الخبز رمزًا للأتراك المسلمين، ثم يدخلونه النار.. وانتقل هذا الخبز إلى فرنسا التي أكسبته شهرة عالمية، ونسينا مع رائحته وطعمه اللذيذ قصته الدموية.

☆ ☆ ☆

أعظم سياسي

في عيد ميلاد المستشار الألماني السابق «هلموت شميت» سألوه: وما رأيك في الرئيس السادات؟

أجاب: أعظم سياسي في القرن العشرين.. فهو صاحب رؤية بعيدة، وإرادة من حديد، وقدرة فذة على فرض السلام.

وكان الرئيس السادات قد وعد المستشار الألماني بأنه سوف يؤلف كتابًا عن السلام في الأديان الثلاثة الكبرى، وأنه سوف يهدي إليه هذا الكتاب.

وقد سألني الصحفي الألماني «فنتفور» عن نص هذا الإهداء؛ لأن المستشار شميت قد علم بذلك وأمليت عليه نص الإهداء.

ثم عاد الصحفي الألماني ينقل لي تساؤلات المستشار: متى قرر الرئيس السادات هذا الإهداء؟.. وما هي الأسباب المباشرة لذلك؟

وأمليت عليه الأسباب، التي أتذكرها، والتي كنت قد سمعتها من الرئيس السادات.

ولما جاءني سكرتير الرئيس السابق كارتر، رويت له هذه الحكاية، فسألني: ولماذا لم يقرر السادات إهداء هذا الكتاب إليه؟ قلت: لا أعرف.. وعاد يسألني: ولماذا اختار شميت، ولم يختر كارتر مع أنهما قد حققا السلام معًا؟!

وقال لي: إذا وجدنا تفسيرًا ونقلته إليه، هل تعلق عليه؟ لأنه من الضروري أن يعرف الرئيس كارتر لماذا غير السادات رأيه، فأهدى هذا الكتاب إلى شخصية أخرى؟

وفي جنازة الرئيس السادات لم أر رجلًا يبكي كما بكى المستشار الألماني، حتى كان شيئًا عجيبًا حقًّا.. فلم يتصور أحد أن الألمان عاطفيون إلي هذه الدرجة، وأن شميت هذا الرجل الحديدي، يذوب من الحزن هكذا، فيتساند على زوجته إلى الطائرة، ومن الطائرة إلى المستشفى. أما الرجل الثاني الذي لم أر أحدًا في حياتي يبكي مثله، فهو المرحوم ممدوح سالم رئيس الوزراء الأسبق.

وكان من رأي الرئيس السادات أن في الدنيا ثلاث شخصيات يستحيل أن تمل الاستماع إليها: المستشار شميت، ود. كيسنجر، ومستشار الأمن السابق برزنسكي.. ولكن شميت أمتعهم، وهذه هي التي يسمونها في اللغات الأوروبية: الكيمياء.. أي الانفعال بشخص والتفاعل معه، لتكون السعادة حصيلة لذلك!

☆ ☆ ☆

حسدوه

كان الذي أصاب الرئيس ريجان ليس كافيًا، لكي يكف الناس عن «القر» والحسد للرجل وزوجته.. فهو المحظوظ الذي قفز من ممثل درجة ثانية، ومحافظ درجة ثالثة، إلى رئيس جمهورية مرتين، ومن الدرجة الأولى!

قالوا أُطلِق عليه الرصاص فلم يمت، فقامت جميع الهيئات الطبية بكل ما لديها من أحدث الأجهزة وأنقذته من الموت.. وأجريت له ثلاث عمليات دقيقة، وانكتب له عمر ثان.

أكثر من ذلك أن أحد السحرة من الهنود الحمر كتب تعويذة للقضاء على كل رؤساء أمريكا من الرئيس «هاريسون» الذي قرر إبادة الهنود الحمر.. والتعويذة نافذة المفعول كل عشرين عامًا، فلا يكمل الرئيس فترة رياسته بشرط أن تكون سنة الرياسة فيها رقم صفر.

فالرئيس «لنكولن» اختير رئيسًا سنة 1860.. واغتيل يوم 15 أبريل سنة 1865 - مع بداية ولايته الثانية.. والرئيس «جارفيلد» اختير رئيسًا سنة 1880 واغتيل يوم 19 سبتمبر سنة 1881 والرئيس «ماكنلي» اختير رئيسًا سنة 1900.. واغتيل يوم 14 سبتمبر سنة 1901.. والرئيس «هاردنج» اختير رئيسًا سنة 1920.. ومات يوم 12 أغسطس سنة 1923.. والرئيس «فرانكلين روزفلت» اختير رئيسًا للمرة الثالثة سنة 1940.. وتوفي في يوم 12 أبريل سنة 1945 دون أن يكمل ولايته الرابعة.. والرئيس «كيندي» آخر التعساء الذين نفذت فيهم التعويذة، فقد اختير رئيسًا سنة 1960.. واغتيل يوم 22 نوفمبر سنة 1963..

وأخيرًا الرئيس ريجان الذي اختير رئيسًا سنة 1980، واختير مرة أخرى، ولكن شيئًا لم يصبه بموت.

ويوم أقام الرئيس ريجان حفل وداع في البيت الأبيض انتشرت الصلوات بين الهنود؛ لعل التعويذة أن تنشط فتقصف عمر الرجل الذي لم يسئ إليهم!

وكأن هؤلاء السحرة قد عز عليهم ألا يموت الرئيس ريجان قتيلًا فنشروا تفسيرًا جديدًا تركه لهم ساحرهم الكبير، وقالوا: إن «التعويذة» قد تجاوزت عمر الصلاحية، وإنه لابد من تعويذة جديدة -أعوذ بالله!

☆ ☆ ☆

البعبع الألماني..

العالم في حالة خوف من الوحدة الألمانية.. (80 مليونًا).. قوة صناعية واقتصادية وعلمية جبارة.. وخوف العالم سببه ما حدث في الحرب العالمية الأولي وخصوصًا الحرب العالمية الثانية.. فألمانيا قوة هائلة.. وهي الدولة الأولى في العالم في الصناعة، والتجارة، والتطور العلمي.. والعالم نفسه يبالغ في متاعب ألمانيا، بعد أن ضمت إليها ألمانيا الفقيرة الشيوعية المخنوقة اجتماعيًّا، والمتخلفة صناعيًّا.. وكلما ظهرت مشكلة اجتماعية بين الألمان؛ فإن دول العالم تشعر بسعادة.. كأن هذا هو الذي سيؤخر الخطر الألماني بعض الوقت.

فلما انتقلت عاصمة ألمانيا من قرية «بون» إلى العاصمة القديمة برلين -عاصمة بسمارك وهتلر - أحس العالم بأن ألمانيا في الطريق الصحيح نحو الحرب والدمار الشامل لأوروبا كلها!

وعندما بدأ الألمان يصلحون بوابة النصر -براندنبرج- اتجهت كاميرات العالم إلى إلهة النصر وقد احتضنت «النسر» الذي أمسك بمخالبه الصليب الحديدي -رمز القوة والمجد والعظمة.. و«الحديد والدم» - ذلك الشعار البروسي العسكري القديم.

ولما قرر الألمان أن ينقلوا اليوم رفات الإمبراطور «فريدريش الأكبر» إلي مثواه في قصر «سان سوسي» في ضاحية بوتسدام بالقرب من برلين؛ هزوا رؤوسهم قائلين: الإمبراطور وقوس النصر وبرلين.. إنها الحرب بعد ذلك!

وكان هتلر قد نقل رفات فريدريش الأكبر سنة 1945 من بوتسدام؛ حتى لا يقع في أيدي الروس ثم وضع الرفات في منجم جليدي.. وقد عثر عليه الأمريكان.. وتوصلت أسرة الإمبراطور إلى دفنه في مدينة شتوتجارت، ولكن ألمانيا سوف تنفذ وصية الإمبراطور الذي توفي سنة 1786-ودفن إلى جوار أبيه الذي يمقته - في أن يُدفن بقصر «سان سوسي» الشهير.. وسوف يقطع المستشار كول إجازته؛ ليرى ذلك مع مائة ألف ألماني.

وفريدريش الأكبر كان من أعز أصدقائه، فيلسوف الثورة الفرنسية «فولتير».. وكان من رأي فريدريش الأكبر أن من واجب كل حكومة أن تضيف أرضًا جديدة.. وهو الذى قال لجنوده في الحرب: أيها الكلاب تقدموا.. فإن الإنسان لن يعيش أبدًا!

☆ ☆ ☆

لا ستر ولا غطا..

طار الغطاء عن الإناء -الغطاء هو الاتحاد السوفيتي- والإناء الذي يغلي هو إفريقيا السوداء.. فقد كان الاتحاد السوفيتي هو الذي يساعد بمئات ألوف الملايين من السلاح والطعام.. أملًا فى توسيع الإمبراطورية الشيوعية ضد الإمبراطورية الأمريكية، وقد توقع زعماء الشيوعية سقوط الرأسمالية لا محالة ابتداء من أمريكا ومن بعدها إنجلترا واليابان وألمانيا.. لا محالة فالحسابات الماركسية تقول ذلك.. وعلماء الكف الأيديولوجي، وقراء الفنجان الديالكيلي يؤكدون ذلك.

وضاعت جبال الملايين في إفريقيا.. فلا الشعوب السوداء شبعت، ولا دماء المقاومة والحرية جفت.. ولا تحوّل الأفارقة أمريكان أغنياء، ولا أصبح الأمريكان أفارقة فقراء.. وبدأ الانهيار في روسيا نفسها.. والرجل الذي هدم المعبد السوفيتي على أدمغة السوفيت هو الشيوعي العظيم جورباتشوف.. أعظم ساسة القرن العشرين في الشجاعة والصدق والواقيعة -قمة الواقيعة!

ماذا حدث في أثيوبيا قلعة الماركسية؟ لقد دفعت روسيا لمانجستو السفاح الذي هرب إلى المزرعة التي اشترتها له إسرائيل في كينيا، عشرة آلاف مليون دولار في سنة 1980..

وتفككت إثيوبيا، وانهارت ليبيريا والصومال.. وانتهت الحرب المزمنة في أنجولا بسلام انعقد في البرتغال وعادت قوات كاسترو -50 ألف جندي إلى بلادها..

وقد حاولت روسيا وأمريكا في السنوات العشر الماضية تشكيل الدول الإفريقية سياسيًّا واقتصاديًّا.. وبمنتهى الصراحة انفردت أمريكا وحدها بالمسرح السياسي، ومساعدة كل حركات الأقليات والمضطهدين.. ولا أحد يعرف الآن مزايا أو عيوب أن تكون أمريكا هي سيدة الكرة الأرضية والكواكب الأخرى.. ولا أحد يعرف الآن قدرة أمريكا على فتح الأسواق، وبيع السلاح وتحقيق السلام في القارات الخمس.. ولا أحد يعرف إلى من يلجأ الضعفاء؛ إذا كان الأقوياء يلجأون إلى أمريكا؟!

إننا ندخل عصر الإمبراطورية الواحدة، والإمبراطور بوش، وسوف تتولد قوى كثيرة مناوئة لأمريكا، تتحد تحت لواء إمبراطور آخر.. وتبدأ حروب الأقطاب والاستقطاب، كما كان العالم في القرن التاسع عشر!

☆ ☆ ☆

تراجمة خواجات

في السفارات الأجنبية في مصر عدد كبير يعرفون اللغة العربية.. ويتكلمونها بوضوح.. وقليل منهم من يتكلمها بطلاقة؛ ولذلك تستطيع هذه السفارات أن تفهم الرأي العام المصري، ما يقال وما ينشر بوضوح تام.. دون حاجة إلى مترجمين مصريين.

وهي سياسة متبعة في كل الدول الأخرى من العالم.

وقد حدث من أربعين عامًا أن كان لي صديق يعمل في السفارة البريطانية، وكان هو الذي يترجم ما تنشره الصحف المصرية.. وفي يوم ترجم مقالًا عنيفًا للأستاذ محمد التابعي، هاجم فيه بريطانيًّا.. ثم أرسل الترجمة إلى الأستاذ التابعي.

ونشر الأستاذ التابعي الترجمة.. ووصفها بأنها غير دقيقة، وأنها جاهلة.. وأنه «استطاع بطريقته الخاصة أن يحصل على المقال»، وانقلبت السفارة البريطانية. وطردوا هذا الصديق من العمل -وهذا طبيعي. وكانت هذه نقطة تحول في السياسة البريطانية وفي السفارات الأخرى. وهذا منطقي جدًّا.

ولكن قابلت - أخيرًا- عددًا من الدبلوماسيين الذين يقولون إنهم يعرفون اللغة العربية، ولم أجدهم كذلك.. فهم لا يزالون خواجات؛ ولذلك لا يفهمون الكثير مما ينشر في الصحف، وهي مغامرة غير محسوبة من السفارات الأجنبية.

واندهشت جدًّا عندما قال لي دبلوماسي كبير: إنني لا أشبع من الهجوم علي جورباتشوف! وإن مقالاتي تعتبر تجريحًا لرجل قد كنت معجبًا به من قبل!

وأدركت أنه لا يفهم العربية فقد كتبت أكثر من أربعين مقالًا هنا وفي أماكن أخرى، أتغزل في عظمة جورباتشوف، وكنت أول من عرض كتاب «البروستريكا» صفحة كاملة في «أخبار اليوم» مع عظيم الاحترام والإعجاب، وعشرات الإسقاطات على ما يحدث في الدول «النائمة» في العالم.. الدول التي نسميها النامية مع أن نموها قد وقف.. وأن روسيا هي السبب.. ولم تستطع هذه الشعوب أن تقفز مثل روسيا؛ لكي تزيل معوقات نموها.

إن هؤلاء التراجمة الخواجات أخطر على بلادهم وعلى العلاقات المشتركة من بعض المترجمين المصريين!

☆ ☆ ☆

تغيير اسمها

الشيوعيون في العالم يريدون أن يغمضوا عيونهم ويفتحوها على اختفاء الماضي بألوانه الحمراء، والمنجل، والمطرقة، والفقر، والسلاسل، وأكذوبة أن الشيوعية أعظم نظام، والرأسمالية أحط أسلوب للحياة.. وأن يعود الملوك، وكذلك الأنبياء موسى، وعيسى، ومحمد، وأن يصبح جورباتشوف هو أول قيصر أحمر، ثم يتغير لونه بعد ذلك ليصبح أبيض وأخضر.

وكما قام خروشوف وأزال ستالين من الوجود ومن دوائر المعارف، فكذلك يفعل جورباتشوف بلينين.

ومدينة لننجراد - على اسم لينين - الاستفتاء قد أُجرِي بين مواطنيها على تغيير هذا الاسم فكانت الأغلبية مؤيدة لذلك.. فالمدينة كانت قَد أنشأها القيصر بطرس الأكبر من 288 سنة على خليج فنلندا لتكون المنفذ والبوابة الغربية على أوروبا.. واتخذت هذه المدينة أسماء كثيرة أول الأمر، اتخذت اسمًا هولنديًّا يبدو كأنه ألماني: «سانت بتربرج».. ثم «سانت بطرسبرج»، ولما دخلت روسيا الحرب ضد ألمانيا أعطوها اسمًا روسيًّا هو «بتروجراد» من 1714 حتى 1924.. ولما مات لينين سنة 1924، جعلوا اسمها لننجراد.

وكانت لننجراد هي مهد الثورة الشيوعية، فمنها بدأ لينين ثورته على القيصرية. وفي مدينة لننجراد وُلِدت كل أحلام الشيوعية الإمبراطورية، وعُرِفت المذابح بالملايين.. فقد كان لينين هو الآخر فيلسوفًا سفاحًا.

وقد حاول جورباتشوف أن يقنع شعب لننجراد بالعدول عن تغيير اسم المدينة التي وقفت ضد النازية 900 يوم، ومات دفاعًا عنها ألوف الروس.. والتي هي مهد الثورة البلشفية. ولكن الشعب أصر على إخفاء جرائم الماضي:

إثمًا واسمًا وجسمًا!

وقيل: إن الشعب لا يستطيع أن يغير اسمها؛ لأن التغيير قد تم بقرار من مجلس السوفيت الأعلى ولابد أن يصدر القرار منه.

وقالوا: إن تغيير اسم المدينة سوف يكلفها مئات الملايين وهي أحوج ما تكون إليها.. سوف يغيرون أسماء الشوارع والميادين، والمطبوعات، والمؤسسات، والمتاحف، والمعاهد والعقود.

وسوف يبعث الرئيس جورباتشوف بجثمان لينين؛ ليدفن فيها بناء على توصية قديمة له.. ووافقت المدينة على دفن لينين والشيوعية تحت الأرض والجِزَم أيضًا!

☆ ☆ ☆

غلطة جورباتشوف

طبيعي أن تظهر في الاتحاد السوفيتي «نكت» على جورباتشوف.. إن هذه النكت هي نوع من الخربشة في الزعيم العظيم.. وهي محاولة للتقليل من هيبته وأهميته، والرغبة في التخلص منه.. وبعضها جديد، وبعضها قديم قالوه عن ستالين.

يقال: إن واحدًا واقفًا في طابور الجمعية، خرج من الطابور وقال: أنا ذاهب لقتل جورباتشوف لكي أخلص منه البلاد والعباد.. فنحن لا نعرف في عصره إلا الكلام والجوع!

وبعد ساعة عاد الرجل ليقف في طابور الجمعية. سألوه: قتلته؟ فأجاب: أبدًا.. لقد وجدت طابورًا أطول من هذا الطابور!

ويقال: إن أحد المنافقين قال للرئيس جورباتشوف: إن حفيدك سوف يكون وزيرًا للمالية عندما يكبر.. انظر إلى أصابعه كيف يضمها بشدة على الورق.. وقال منافق آخر: بل سوف يكون وزيرًا للدفاع، انظر إلى وقفته.

وقال ثالث: بل سوف يكون وزيرًا للثقافة فهو أنيق في مظهره، حريص على أن يبدو لطيفًا.

فما هي غلطة جورباتشوف؟

إنها غلطة قديمة جدًّا.. إنها غلطة أبناء آدم عليه السلام. قال له ألا يأكل من الشجرة المحرمة. فأكل منها.. وتقول التوراة: إن آدم أكل من شجرة المعرفة، فعرف أنه عريان وأن حواء كذلك وراح يتغطى بأوراق التوت، ولكنه كان قد أخطأ، وكان لابد أن يهبط الأرض عدوًّا لنفسه ولزوجه ولأولاده.

وغلطة جورباتشوف أنه جعل الشعب يأكل من شجرة الحرية، فعرف الشعب أنه حر جائع.. وقبل ذلك كان يعرف أنه جائع وليس حرًّا.. ولكن لا يهم الجوع مادام الاتحاد السوفيتي إمبراطورية سوف تهدم الإمبراطورية الأمريكية.. فعُوقب جورباتشوف بالمظاهرات ضده والهتاف بسقوطه!

فما هي النكتة إذن؟

إنها سلاح الضعيف يطلقه على القوي، والغني، والشجاع، والحاكم.. وعلى الأغلبية.. إنها عيار ناري يصيب واحدًا ويسجل في دفاتر الشرطة على أنه صادر من مجهول.. والنكتة سلاح مؤلم يدفع إلى الإصلاح، ولكن - نحن في مصر - اعتدنا عليها في الصحف وفي المسرح.. وأصبحنا نهتز لها بالضحك لها وعليها.. لقد فقدت صلاحيتها.. ونحن مدمنون - فلا أثر لها ولا نتيجة.

☆ ☆ ☆

رئيسة وزراء فرنسا

استأنفت رئيسة وزراء فرنسا السيدة أديت كريسون الهجوم على الإنجليز. فقد كان الرئيس ميتران يهاجم السيدة مرجريت تاتشر ويقول إن لها عيني سفاح وشفتي مارلين مونرو!

أما السيدة كريسون فترى أن الإنجليز لا يقدرون الجمال ولا أنوثة المرأة.. وأنها عندما ذهبت إلى بريطانيا، لم يلتفت إليها أحد، ولا وجدت العيون تلاحقها.. بينما المرأة الفرنسية تجد في ذلك إهانة لها.. كيف أن أحدًا لا يبحلق فيها، ولا يتابعها بعينيه إذا هي استدارت.

وفهم الإنجليز الإهانة! وقالت الصحف: إن هؤلاء الفرنسيين أكلة الضفادع لا يمكن أن يتهموا الإنجليز بالشذوذ الجنسي.. ففي فرنسا أعلام الأدب والشعر والرسم من الشواذ.. وإن اهتمام الفرنسيين بالمرأة ليس إلا تغطية لاهتمامهم الحقيقي بالرجل!

وقالت إحدى الصحف البريطانية: الآن عرفنا ما الذي يقصده الفرنسيون عندما يصفون باريس بأنها «باري - جاي» وكلمة «جاي» بالفرنسية معناها: المرحة.. وبالإنجليزية معناها: الشاذ جنسيًّا.. فهم يقصدون باريس الشاذة!

ونشرت إحدى الصحف البريطانية أن السيدة أديت كريسون لا تطلب من الشعب الإنجليزي أن يستعير عيون الفرنسيين لكي ينظر إليها.. ففي بريطانيا جميلات في الشوارع أروع من جميلات البيوت الفرنسية.. ولكثرة هذه الجميلات فقد شبعت منها العيون.. ومن الممكن أن تلتفت إليها في أي وقت.. وعندما كشفت المرأة الإنجليزية عن ساقيها في موضة الميكرو والميني لم يكن سبب ذلك جمال السيقان الفرنسية طبعًا!

وكتبت صحيفة المحافظين تقول: إن السيدة مرجريت تاتشر كانت ذات ذوق سليم.. ولم تزعم أنها أنيقة أو سيدة الأنيقات وإن كانت كذلك!

وهاجمت صحيفة أزياء بريطانية السيدة أديت كريسون بقولها: ولا حتى فساتين مدام كريسون التي صممتها كبريات دور الأزياء الفرنسية «لائقة» بها وبقوامها وسنها!

وكتبت صحيفة بريطانية أيضًا تقول: ليس جديدًا هذا الخلاف بين بريطانيا وفرنسا.. إن عمره سبعة قرون.. ومن المؤكد أن النفق الذي تحت ماء المانش؛ ليربط بين إنجلترا وفرنسا، سوف يجعل هذا التجريح أسرع وأوجع!

☆ ☆ ☆

أخلاق المخابرات

الإنجليز متواضعون عندما يقولون: إن أعظم مخابرات في الدنيا هي الأمريكية والروسية والإسرائيلية ثم الإنجليزية، الحقيقة أن مخابرات بريطانيا هي رقم 1 في الدنيا، والأدلة كثيرة جدًّا على ذلك.. وليس آخرها حرب الخليج والانقلاب الفاشل في موسكو، ولا يحدث إلا نادرًا جدًّا أن يخرج واحد من رجال المخابرات الإنجليزية ويفضح الجهاز (م15). ولا أحد يعرف كيف يكتمون أنفاسًا ويقصفون أقلام الغاضبين من عملاء المخابرات البريطانية!

وإذا كانت كلمة «الأخلاق» لها معنى في المخابرات، فالمخابرات البريطانية عندها أخلاق. فهي لا تنسى عملاءها. وتظل تلاحقهم في كل مكان حتى تنقذهم من الموت والإعدام، والقصص كثيرة، آخرها قصة العميل السوفيتي جوريفسكي (53 سنة)، لقد كان رئيس المخابرات السوفيتية في بريطانيا والدول الإسكندنافية.. وكان مركزه لندن، واستطاعت المخابرات البريطانية (م15) أن تحتويه، فقرر اللجوء إلى بريطانيا سنة 1985، ومعه وثائق خطيرة عن كل أجهزة الأمن وقواعد الصواريخ، وشفرة الاتصالات بين القيادات، وأجهزة الأمن في الكرملين، وأجهزة أمن الرئيس السوفيتي.

وهذه الشفرة هي التي مكنت بريطانيا وأمريكا معًا من رصد كل تحركات الرئيس جورباتشوف وتسجيل كل المكالمات الواردة إلى بيته والخارجة منه.. واختراق كل الاتصالات وتسجيلها ونقلها بأقمار التجسس إلى معامل تحليل المعلومات في بريطانيا وأمريكا، وكذلك هو الذي نقل تفاصيل القواعد والأسلحة العراقية السوفيتية.. وأسماء عملاء صدام حسين في أوروبا وأمريكا.

وترك العميل السوفيتي زوجته «ليلي» (43 سنة) وابنتيهما في موسكو تحت الرقابة، والقيود والتخويف، وقد طلبت المخابرات الروسية من ليلي أن تتبرأ من زوجها.. رفضت، أن تخونه.. رفضت أن تتزوج غيره، فهي لم تصبح زوجته بعد.. رفضت هددوها بقتل الابنتين إذا لم تبعث له بخطاب طويل تلعنه وتفضحه.. رفضت.. حتى التقى بها رئيس وزراء بريطانيا وزوجته، وأكد لها أنها سوف تلحق بزوجها اليوم، وعادت ليلى إلى زوجها وأغلق ملف العميل السوفيتي الذي لابد أنه جند عشرات آخرين لحساب بريطانيا!

☆ ☆ ☆

مدن؟؟ بركان

رأيت فيلمًا عن الحياة على سفوح بركان «فيزوف»... البركان بالقرب من مدينة نابلي الإيطالية. هذا البركان لايزال حيًّا يرتجف. ثم إن المياه المجاورة له ما تزال تغلي.. ولكن الحكومة الإيطالية وضعت أجهزة لرصد الهزة الأرضية على مدار اليوم والساعة والثانية.. ومن الرصد والتحليل يمكنها أن تعرف إن كان في نية البركان أن ينفجر، ويلقي بالحمم التي غطت علي القرى والمدن المجاورة. -مدينة بومبي مثلًا -.. وقد أدت هذه الحمم إلى قتل وخنق سكان هذه المناطق وجعلت منهم متحفًا رائعًا ومروعًا. فقد تغطت الناس بطبقة رقيقة من الحمم فماتوا في الحجر.. تماثيل حية!

ولم يهرب الناس من المنطقة، وإنما عاشوا وأقاموا العمارات، والمحلات.. وتعد هذه المنطقة أكثف مكان في أوروبا كلها.. تعايشوا مع الخوف والرعب.

والعالم كله فعل نفس الشيء.. ففي مواجهة أسلحة الدمار الشامل في روسيا وفي أمريكا وخوفًا من القنابل النووية واعتمادًا عليها، قامت الحضارة الأوروبية في الأعوام الخمسين الماضية وانتعشت.. ودارت سفن الفضاء حول الأرض، وإلى الكواكب الأخرى.

وفي مواجهة سموم البيئة، وتحت فيضانات أشعة الموت التي تحرق غلالة الأوزون، لم تتوقف الحياة..

وعلى الرغم من أن الإنسانية قد فقدت تسعين مليون نسمة في الحرب العالمية الثانية، فإنها لم تندب حظها وتلطم خديها على ما كان، وإنما اتجهت إلى تعويض الذين ماتوا بمئات الملايين من الناس في القارات الخمس..

ثم إنها طورت أسلحة الدمار، ووسائل الحياة.. وعلى الرغم من أننا نعيش في قنبلة موقوتة، فلم نفقد الأمل.. وإنما مضينا ندعو للسلام.

ولم يبق إلا أن تفعل الدول الصغيرة شيئًا من ذلك.. فالسلام الشامل لم يتحقق في الشرق الأوسط.. فقد هاجم العراق الكويت، وجاءت قوى دولية لردع العراق.. ولايزال العراق الذي استعد لضرب العواصم العربية كلها بالقنابل النووية يسحق الشعب الكردي.

وما دام الشعب الفلسطيني مطرودًا من أرضه وفي أرضه، وما دام الشعب الفلسطيني لم يعرف السلام.. فعلى السلام السلام!

☆ ☆ ☆

أنت حر!

ونحن تلامذة في قسم الفلسفة كان من المقرر علينا أن نذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية وأن يطّلع كل منا على حالة مرضية. يحلل ويدرس ويقترح علاجًا، وكان من نصيبي شاب أرمني يقيم فوق سطح البيت المجاور للأستاذ العقاد، وفي غرفة صغيرة لم يبرحها عشرين عامًا -يخاف أن يخرج منها. وهذا هو المرض. واسمه الخوف من الأماكن المفتوحة -أجروفوبيا- ولم أفلح لا أنا ولا غيري في إخراجه من هذه الغرفة، وتخيلت - لأن معلوماتنا قليلة ودراياتنا العلاجية متواضعة - أننا إذا أرغمناه على الخروج من الغرفة بالقوة، وجعلناه يرى الشارع والناس والسماء والشمس.. فمن يدري؟ وبالقوة والعنف أخرجناه من الغرفة وهو يصرخ.. وأغلقنا باب الغرفة بالقوة! ووضعناه على المقعد ليرى الشارع لأول مرة، والناس، والبيوت، والنبات والأشجار التي زرعتها أمه فوق السطوح، ونرى سعادة أمه.. لقد بدا لنا غارقًا في محيط من الأحاسيس والألوان.. وأنه عاجز عن التنفس.. وكل حركاته تدل على أنه يكاد يموت.. ولم نستمع إلى أي شيء مما يقول.. وأسرع إلى الغرفة وأقفلها بالمفتاح من الداخل وأقسم إنه لن يفتح الباب لأمه.. وبكت الأمم وخاب أملنا.

شيء من ذلك واجه الرئيس جورباتشوف.. خادمه استعصى عليه.. فالذين وُلِدوا في كهوف وجليد روسيا، وحديد الماركسية سبعين عامًا.. كان من الصعب عليهم أن يخرجوا.. ولكن جورباتشوف فتح النوافذ وأشاع الضوء.. ثم هدم الجدران. وأتى لهم بالناس.. والطعام والشراب والتليفزيون.. طبيعي أن يعطس الذين أصابهم الهواء العاصف.. والهواء كان نقيًّا، فهو عاصفة نقية.. وبعضهم لابد أن يسعل، وأن يصاب بالتهاب رئوي.. وليس ذلك عيبًا في العواصف النقية، ولكنه عيب إدمان الهواء الراكد والماء الآسن، وانعدام الرأي والرؤية.

وكنا ونحن ندرس الفلسفة الوجودية مبهورين بالحكاية الصغيرة التي يرويها الفيلسوف «سارتر» دليلًا على أعباء الحرية، وصعوبة قرار الاختيار، فكان يقول: إن الطفل، -وكل الشعوب المستعبدة كهذا الطفل- تقول له: هل أشتري لك شيكولاتة؟ هل آتي لك ببسكوت؟ هل تأخذ أنت الفلوس وتشتري؟ وفي كل مرة يقول: لا.. فتضيق وتقول: أنت حر.. فيبكي الطفل.. إنك قد جعلته هو الذي يختار، وهو الذي يقرر.. وهو لا يريد فبكى. فلم تتعود الشعوب السوفيتية أن تختار؛ ولذلك أضر بها جورباتشوف عندما أطلق سراحها وقال لها: أنت حرة!

☆ ☆ ☆

لابد أن يفشل!

توقعت نهاية جورباتشوف أكثر من مرة.. لأنه سابق زمانه.. ولأنه يريد أن يهدم المعبد مثل شمشون الجبار، ولا بد أن يسقط فوق دماغه، ولأنه مثل واحد صعد جبلًا فرأى ما لم يستطع الناس أن يروه فكذبوه وقلعوا عينيه..

وبعد أيام رأى الناس ما رآه هو قبل ذلك.. ولهذا سوف يُعرَف فضل جورباتشوف بعد عشر سنوات -تمامًا كما حدث لأنور السادات!

فجورباتشوف أعطى الاتحاد السوفيتي «جرعة» كبيرة جدًّا من الديمقراطية والتعددية. وأطلق سراح العبيد من أبناء أوروبا الشرقية.

وجورباتشوف مثل كثير من العظماء الذين استغرقهم النظر إلى الأمام، لم يروا الذين حولهم.. فكل الذين اختارهم جورباتشوف قد تآمروا عليه.. فقد كان شديد الثقة بنفسه، وعظيم الثقة بقدرة الغرب على مساندته.. ولذلك لم يحسن اختيار مساعديه.. ثم إن الغرب يستطيع أن يحبس عن روسيا الفلوس والطعام والشراب، ولكنه لن يستطيع إعادة جورباتشوف إلى موقعه من القيادة السوفيتية.. انتهى!

لقد ظهر جورباتشوف فجأة، واختفى فجأة، وكل ما يمكن أن تفعله القيادة الجديدة لإرضاء الغرب هو ألا تقتل جورباتشوف بالسم، وألا تضع بوريس يلتسين في السجن، وألا تدخل بالدبابات كل دول أوروبا الشرقية، فقد تحررت وقامت شعوبها تختار حكوماتها وأحزابها.. انتهى!

والشعوب السوفيتية التي رأت التليفزيون الأمريكي، وساحت في كل الدول الأوروبية والأمريكية، وأكلت الهامبورجر، وارتدت الجينز، وانفتحت عليها كل قنوات التليفزيون، ورأت مسلسلات «دالاس» ونوتس لاندنج.. لا يمكن أن تعود للفقر مهما كانت المسميات الشيوعية لذلك.. ثم إن الشعوب الشيوعية قد كفرت بالشيوعية التي لم تعرف معها إلا فلسفة للفقر، وفلسفة للإفلاس.

وسوف يلقى جورباتشوف ما لقيه أستاذه خروشوف، الذي جعلوه مريضًا على مقعد في إحدي الحدائق، يستمع إلى راديو هدية من الرئيس عبد الناصر.. وجورباتشوف تلقى راديو هدية من رئيس وزراء اليابان كايفو. ومهما حدث؛ فسوف يظل جورباتشوف أعظم رجالات القرن العشرين!

☆ ☆ ☆

من هو العدو؟!

ألف باء علم الاستراتيجية هو هذا السؤال: من هو العدو؟

والإجابة عن هذا السؤال هو كل الخطط التي يضعها الجيش للدفاع والقتال وتطوُّر الأسلحة والأسلحة المضادة.. ومن غير عدو، فلن يكون هناك هدف للدفاع أو للقتال أو الحرب.. والآن أصبحت أمريكا بلا عدو.. أي كان عدوها الاتحاد السوفيتي من سبعين سنة.. واتجهت إلى الاتحاد السوفيتي كل الجواسيس، وكل سفن الفضاء، وكل الصواريخ.. وكل برامج التربية والتعليم والصلوات في المعابد.

وروسيا كان أملها تحطيم أمريكا وتركيعها؛ حتى تؤمن بأن لينين حق. وأن الطبقة العاملة هي ملوك المستقبل. وأن الشيوعية هي العدل الأسمى الذي يأخذ أموال الأغنياء للفقراء.. وتسوية الأرض بعضها ببعض فلا تكون سهولًا ولا جبالًا.. وتسوية أصابع اليد بعضها ببعض لصالح الأصبع الصغرى.

وأمريكا وكل الدول الديمقراطية الحرة كان أملها هو القضاء على الشيوعية وطغيان الرأي الواحد والحزب الواحد.. وعمى الألوان؛ لأنهم لا يرون إلا لونًا واحدًا هو الأحمر.. ولا يرون إلا طبقة واحدة هي الفقر.

وفجأة أصبحت أمريكا بلا عدو شيوعي.. وروسيا بلا عدو أمريكي ألماني ياباني!

ولذلك لا بد أن يعاد التخطيط والنظر، وأن يجيب علماء الاستراتيجية عن السؤال: من هو العدو؟ وإلى من تتجه فوهات المدافع.

لقد كان الأديب السويسري «ديرنمات» يسخر من بلاده سويسرا التي هي دولة محايدة! ويتساءل: كيف يكون الإنسان محايدًا أمام الظلم والقهر والفقر؟!.. كيف يكون هدف سويسرا هو أن تجمع كل أموال الدنيا وتكسب وتبيع السلاح لكل دول العالم ولا رأي فيها لأمراض الإنسانية؟!

فلا حياد في الدنيا ولا عدم انحياز أيضًا.. لا بد أن ينحاز الإنسان إلى الثراء والديمقراطية والحرية، وإذا لم يكن هناك عدو سياسي؛ فهناك عدو اقتصادي.. فإذا اختفت روسيا -مؤقتًا- من العداوة السياسية؛ ظهرت اليابان وألمانيا..

فإذا لم يكن هناك عدو؛ خلقناه.. وسوف يظهر الأعداء في الداخل والخارج بأسماء أخرى!

☆ ☆ ☆

الغضب المكتوم

هناك غضب مكتوم في الشرق العربي.. فنحن ضد الإرهاب من أي نوع.. لا نريده لبلادنا أو لغيرنا.. وإذا كان القذافي قد نسف طائرة بها مواطن واحد أو ألف أو لم يكن فيها إلا طاقمها؛ فهو غلطان ويستحق العقاب - هو وليس شعبه!

ولكن العالم عاجز أمام أمريكا التي أرهبت مجلس الأمن، والأمم المتحدة، وكل من يرفع رأسه بكلمة تفسد مزاج الرئيس بوش، كبير كبراء الكرة الأرضية والكواكب الأخرى.

والعرب يتساءلون: وهذا الذي يحدث في الأرض المحتلة.. مبادلة الحجارة بالرصاص؟ السؤال لم يعد له معنى.. فقد ثبت عشرات المرات أن ما تريده أمريكا، هو ما تنفذه إسرائيل، وأن ما تنفذه إسرائيل، سوف تريده أمريكا اليوم أو غدًا.. أصبحت بديهية.. وإن كان من الصعب قبولها!

والآن جاء دور سوريا هي الأخرى.. وقد قيل إنها اشتركت في نسف الطائرة.. وهل الذي فكَّر ودبَّر هم الفلسطينيون؟ طائرة مقابل طائرة.. ومائة ضحية مقابل ضحية واحدة.. كلام جديد. ولا نعرف إلى أين سوف يتجه.. إن الضغط على سوريا بدأ من أمريكا ومن تركيا..

والرئيس القذافي ليس على استعداد لأن يقطع أنفه؛ إنقاذًا لوجهه. وهو في نفس الوقت لا يريد أن يجرب العزلة الدولية، ولا الضغط الذي يولد الانفجار في داخل بلاده.. ثم إنه ليس صدام حسين الذي لديه حدود وسدود وجيوش، والذي قضى على كل خصومه، القادر على أن يواجه التجويع والتخويف.. ولكن القذافي ليس عنده جيوش ولا قوات ولا قواعد.. ثم إن أمريكا لديها أكثر من ألفي ليبي تدربهم تدريبًا جيدًا على دخول ليبيا.. إلخ.

وليس من الإنصاف أن يمتحن الرئيس القذافي أصدقاءه - إن كان له أصدقاء - وأشقاءه - إن كان له إخوة - فليس لدى أي أحد استعداد لأن يقاطع أمريكا وأوروبا.. التي تملك المال والسلاح والسلام والقروض، وتسيطر على كل مجالس الأمم المتحدة.

وإنما الحكمة تقضي ألا يعاقب الرئيس القذافي شعبه كله من أجل شخصين كان من الممكن أن يموتا في أية معركة؛ فداء له وللشعب وللنهر العظيم.. فكم ماتت الألوف في بلادنا من أجل الآخرين.. وعلى استعداد أن يفعلوا ذلك من أجل مصر، والقومية العربية.. بل من أجل ليبيا أيضًا!

☆ ☆ ☆

والتنهدات أيضا!

مسلسل القذارة الانتخابية في الرياسة الأمريكية مستمر.. وليس صحيحًا أن المرشحين زاهدون في الفضائح، وإذا زهدوا فلم يكونوا جديرين بمواقفهم السياسية، فالسياسة هي فن السفالة الأنيقة؛ أى كيف يكون الإنسان سافلًا منحطًّا وصوليًّا، وفي منتهى الأدب والشياكة، مثلًا: أريد أن أخرب بيتك يا حبيبي.. أريد أن أفرج عليك الناس.. وأن أقطعك حتتًا للكلاب الغالية الثمن الجميلة الفراء.. صدقني إنني لم أكذب في حياتي، ولا أحب الكذب.. فأنا جاد في إسقاطك في الوحل، ويكون لسقوطك دوي موسيقي مروع..

وهم الآن - في حزب بوش - يبحثون في ملفات المرشح كلينتون وزوجته المحامية الشهيرة.. فقد وجدوا أنها هي أيضًا قد لعبت بذيلها كثيرًا.. وأنهم قد وجدوا الذيل وبدءوا يحصون كم شعرة في هذا الذيل.. وسوف يختارون أشدها تدميرًا لسمعتها كسيدة أولى مقبلة.

آخر ما وجده خبير الفضائح في حزب بوش، أن المحافظ كلينتون مرشح الحزب الديمقراطي كانت له تلميذة.. هذه التلميذة قد ساعدها على الإجهاض.. إذن لقد كان سيادته الأب لهذا الطفل. وذهب خبير الفضائح السيد «فلويد براون» إلى كل الأطراف، وحاصرها، ثم اتصل تليفونيًّا بأم البنت، وسألها عن علاقة بنتها بالمحافظ كلينتون، فأنكرت تمامًا، ولكن الرجل أصرَّ على موقفه، وقال لها: إن كل الذي يريده منها أن تعترف له بوجود علاقة؛ لأن هذا سوف ينقذ البنت من مشاكل جديدة من الممكن أن تقع فيها.. ولكن الأم أنكرت تمامًا، ورفضت أن تعطيه عنوان ابنتها، وقررت الأم أن تسجل هذا الحوار بينها وبين الرجل، وحصل الحزب الديمقراطي علي التسجيل، ومن الممكن أن يسمعه كل من يطلب رقمًا تليفونيًّا معينًا، وهي فضيحة جديدة لبوش وحزبه!

وهي رد على تسجيل تليفوني أيضًا يذيعه حزب بوش ضد المرشح الديمقراطي، وفي التسجيل صوت المرشح كلينتون وفتاة الكباريه.. أما الكلمات فقبيحة، أما التنهدات فقد أضيفت إلى الشريط بعد ذلك!

☆ ☆ ☆

حرب العشيقات

لايزال الوحل والطين والعار هي أهم ما تتسم به المعارك الشخصية بين الرئيس بوش وخصمه المرشح الديمقراطي كلينتون محافظ ولاية «أركنساس»، فالديمقراطيون يقولون: وكانت للرئيس عشيقة اسمها «جينفر» أيضًا، وكانت سكرتيرة له!

والحزب الجمهوري يؤكد أن المحافظ كلينتون له عشيقة اسمها جينفر وهي إحدى بنات الليل. وقد استمرت هذه العلاقة 13 سنة، والذي لا يصدق فليطلب رقم كذا.. وسوف يسمع تسجيلًا صوتيًّا بين المرشح الديمقراطي وهذه الفتاة جينفر.. وسوف يجد الدليل القاطع على العلاقة الطويلة العميقة بين المرشح وبين فتاة الكباريه.

والناس يطلبون الرقم، ويستمعون إلى حوار طويل هامس ساخن بين المحافظ كلينتون وبين الفتاة. والحوار يؤكد أن هناك علاقة حميمة، وإن كانت لهجة الفتاة تدل على أنها «بلدي».. حلوة صحيح، ولكن جاهلة تمامًا..

والذين يعرفون كلينتون الذي تزوج أنجح محامية في أمريكا، يؤكدون أن هذه العلاقة لابد أن تكون عابرة. ولكن الشريط الذي يسمعه الناس في التليفون يؤكد أن العلاقة رغم ذلك كانت قوية جدًّا - وقد تمكن كثيرون في القاهرة من الاتصال بهذا التليفون، ثم الاستماع إلى الحديث، وسجلوه أيضًا!!

ولا بد أن هناك حذفًا كثيرًا لبعض العبارات، ثم إعادة تركيب الحوار وإضافة بعض الموسيقى والتأوهات.

وقد أنكر المسئولون عن الحملة الانتخابية للرئيس بوش علمهم بمثل هذه الحيل القذرة. ولكن من الذي يهمه تلطيخ كلينتون إن لم يكن رجال الرئيس بوش!

والأمريكان لا يرون في مثل هذه القصص والفضائح شيئًا غريبًا، فقد اعتادوا على ذلك في الصحف والتليفزيون.. فالفضائح والجرائم هي طعامهم اليومي. وسوف ينجح الرئيس بوش رغم كل الذي يقال عنه في حرب الخليج وفي السياسة الداخلية، وسوف يختارونه لأنه يمثل الرجل «الجدع» القوي الذي يضرب ويناور ويكسب في النهاية، وهي صفات يتمناها كل أمريكي لنفسه ولأولاده ولأمريكا أيضًا.. في مواجهة الشرق القديم والجديد، واليابان وألمانيا.

☆ ☆ ☆

قطة الفلاسفة

كانوا يصفون الفلاسفة بأنهم الذين يبحثون عن قطة سوداء في غرفة مظلمة.. يسمعونها ولا يرونها!!

شيء من ذلك يقال عن أمريكا الآن، فهم يبحثون عن عدو ولا يجدونه، فقد كان السوفيت والشيوعيون هم العدو الصريح الواضح في كل مكان.. ومن أجله وضده رصدوا ألوف الملايين وجندوا عشرات الألوف.

أما الآن فقد أصبحت أمريكا عدوًّا للعالم كله.. فالناس أعداء القوي والغني، وأعداء الذين يعتمدون عليه في الطعام والشراب وفي السلام وفي السلاح.. لقد تجمعت كل الصفات الملعونة في أمريكا الآن!

حتي المخابرات الأمريكية أعلنت بمنتهى الوضوح عن كل فلسفتها، فلم يعد هدفها الأول هو النشاط الاقتصادي الذي يتربص بأمريكا ومنتجاتها، سواء خارج أمريكا أو في داخلها.. وعدوها الأول اليابان، والثاني ألمانيا، والثالث أوروبا.. والرابع: كل دول العالم الثالث، التي لديها البترول والغابات والحقول، وكذلك أكبر قوة استهلاكية في العالم: الصين واليابان.

ولم تعد رحلاتها إلى الفضاء الخارجي ذات أهمية كبرى؛ لأنها ليست في حالة سباق مع أحد وإنما فقط لكي تتفوق على نفسها ولا تصفق لذلك!

وسوف تلجأ أمريكا إلى خلق معسكرات.. وأحزاب وحروب.. لكي تقف إلى جانب منها ضد الجانب الآخر.. وتدفع الجانب الضعيف إلى شراء السلاح، وفي نفس الوقت سوف تدعوه أمريكا إلى السلام القائم على العدل وكرامة الإنسان والشرعية الدولية!

لقد رأيت في لشبونة في فيلم ج. ف. ك «جون فيزجرالد كيندي»، الفيلم قد فتح ملف قصة كيندي، وخلاصة الفيلم: أن قتل كيندي كان انقلابًا عسكريًّا، من تدبير البيت الأبيض، ووزارة الدفاع وتجار السلاح والمخابرات والمافيا. لماذا؟ لأن كيندي كان يدعو إلى السلام الذي يوقف الحروب، ويخرب مصانع الذخيرة، ويقضي على العملات.. فكان لابد من قتله وتبديد معالم هذه الجريمة إلى الأبد.

وأسهل شيء يمكن أن نقوله الآن لكي نريح دماغنا هو: أن الرجل يا ولداه قد انتحر!! أو أنهم «انتحروه»!

☆ ☆ ☆

الأدب على الطريقة اليابانية

وإذا كانت أوروبا تكره ألمانيا والألمان، فأمريكا تكره اليابان، والشعب الياباني أيضًا يكره أمريكا، والسبب هو أن القنبلة الذرية قتلت مئات الآلاف من اليابانيين، والباقي نجا ليصنع أعظم دولة صناعية في العالم تهدد أمريكا وأوروبا، وتقفل المصانع الكبرى أو تشتريها حتى لا يقفلوها.

ولقد كان الشعب الياباني سليط اللسان في استقباله للرئيس بوش. قالوا: ارجع لبلادك.. وقل لأهلك وناسك يعملوا أكثر.. رتب بيتك قبل أن تتهم الشعب الياباني بأنه لا يكف عن العمل وخراب البيوت! لا نحن أقزام ولا أنتم عمالقة.. ثم من الذي انتصر أخيرًا؟.. حتى لو سقطت ميتًا، فإن أحدًا لن يبكي عليك!

ولم تنس الصحف اليابانية أن رئيس وزرائهم اعتذر لأمريكا عن ضرب الجيوش الإمبراطورية للأسطول الأمريكي في بيرل هاربر؟!

إنها حرب، فما الذي كان يتوقعه الأمريكان؟! إن الأمريكان لم يطلبوا إلى الألمان أن يعتذروا عن دمار أوروبا كلها!

ثم إن الرئيس بوش لم يعتذر عن استخدام أمريكا للقنابل الذرية في إبادة مئات الألوف في نجازاكي وهيروشيما!

والشركات اليابانية ماضية في شراء السينما الأمريكية والجزر اللاتينية واللوحات الفنية.. وآخر أخبار اليابانيين أنهم قرروا أيضًا شراء مصانع «رولزرويس» - أرقى وأفخم السيارات البريطانية.. وأعظم مصانع الدنيا لصناعة محركات الطائرات.. وسوف تشتري هذه الشركة شركتين للسيارات هما هوندا وتويوتا.. اللتين تقيمان مصانع جديدة في بريطانيا.

يعني الألمان واليابانيون هم الذين خربوا المصانع العالمية، وهم الذين يشترونها ليعيدوا إليها الحياة.. والعالم شرقًا وغربًا يرتجف من العملاق الألماني والعملاق الياباني.. وهناك نكتة أمريكية تقول: إن عمال إحدى شركات السيارات زاروا رئيس مجلس الإدارة فوجدوه قد انحنى على الأرض.. فتساءلوا إن كان ظهره قد انكسر بسبب الخسارة الفادحة.. أو هو يتعلم الأدب على طريقة اليابانيين!

والأمريكان يقولون: إن اليابانيين يكررون معركة بيرل هاربر في كل المجالات.

☆ ☆ ☆

الموت أهون

ليس أقدر من الساسة والتجار على إدراك أهمية الناس، فالسياسي هو رجل العلاقات العامة من أجل تطويعها له.. والتاجر هو رجل العلاقات العامة من أجل أن يكسب منها..

والسياسي والتاجر كلاهما لا يهتم بالإنسان كإنسان.. إنه وسيلة إلى قوة، أو وسيلة إلى مال، والمال قوة أيضًا.

ذهبت مع صديق سياسي تاجر إلي زيارة مريض. وبدأ الحديث رقيقًا. ثم تحول الحديث إلى حوار دافئ، ثم إلى مشادة ساخنة. وعاتبت هذا الصديق على أنه حول غرفة المريض إلى منبر سياسي، وراح يستعرض تاريخه وما قام به من أجل أبناء دائرته الانتخابية، وكان في استطاعته أن يؤجل ذلك إلى ما بعد أن يشفى الرجل ويبرح الفراش. وقلت: لا مبرر لهذا الاستعجال، فلايزال هناك وقت لعمل أي شيء.

واتخذ من عبارتي هذه موضوعًا للنقاش الحاد العنيف. وكانت حجته: أن هذا هو الفارق بين السياسي وبين الشاعر، أو بين المفكر المتأمل. فالسياسي يجب ألا يضيع فرصة يكسب فيها أحدًا من الناس. فهو في معركة دائمة.

وإذا لم يكسب فسوف يخسر. ثم إن هذا المريض خصم.. وأقاربه وأصدقاؤه أيضًا. ولذلك يجب ألا تفوت الفرصة حتى يكسبهم إلى جواره، ولو كان ذلك على راحة المريض أو جثته، فهي معركة حياة أو موت.. وأنه قد خرج من هذه المناقشة بإعجاب الناس له، وإشفاقهم على المريض.

وأن الموت عنده أهون من أن يفوز بإشفاق الناس عليه، وليس بإعجابهم به.

ثم قال: إن الذين يتفرجون على الحياة وهي تمر من تحت أقدامهم، في استطاعتهم أن يغمضوا عيونهم ويعيشوا بعد ذلك.. ولكن ليس هذا ما يطبقه السياسي أو التاجر.

وقابلت المريض بعد ذلك، وكان ما توقعته، فقد عاب على صديقنا السياسي التاجر هذا أنه قليل الذوق. وأنه أوجع رأسه وأثار غضب الناس بصوته ونبرته.

ثم عاد يقول: لكن هذه هي مؤهلات النجاح بين الناس!

إذن فالسياسي والتاجر كلاهما على حق في تحويل كل مناسبة إلى سوق يبيعون فيها ويشترون.. ويكسبون دائمًا!

☆ ☆ ☆

الحروب أمّ الاختراعات

ملايين الناس يموتون في فراشهم، ولكن أحدًا منا لم يترك سريره لينام على الأرض.. وملايين ماتوا على الأرض في المعارك، ولكن أحدًا اختار أن يظل في سريره فلا يطأ الأرض.. إننا ننسى لأننا حريصون على الحياة، ولأننا نعرف أن الموت قادم لا محالة.. ولا نعرف متى وأين وكيف؟

ولـن تنتهـي حـوادث السيـارات والطائـرات ولـن يتوقـف أحد عن ركوبها.. ولا عن تطويرها..

وقد أطلق الروس الكلبة «لايكا» سنة 1957، لتدور حول الأرض في كبسولة لا يستردونها، فماتت، وضجت جمعيات الرفق بالحيوان، وسارت الجنازات من أجل لايكا، ثم أرسل الروس ثلاث كلاب أخرى سنة 1960، واستردوها.. وفي نوفمبر سنة 1960، طاش صاروخ أمريكي عن مساره وسقط في كوبا وقتل بقرة. فأقامت الحكومة الكوبية جنازة رسمية مهيبة لهذه البقرة باعتبارها ضحية للاستعمار الأمريكي!

ولا توقفت كوبا عن تربية الأبقار، ولا أمريكا عن تطوير الصواريخ..

ويوم 21 أبريل سنة 1961، ارتفع أول إنسان ليدور حول الأرض 89 دقيقة على ارتفاع 250 كيلومترًا. إنه «جاجارين».. ولكن بعدها بسبع سنوات مات جاجارين عندما سقطت به طائرة تدريب، فلم يتوقف الروس لا عن إنتاج الطائرات ولا عن إرسال رواد للفضاء، وأنزل الأمريكان أول إنسان على القمر.. وأرسلوا سفن الفضاء إلى الكواكب الأخرى.. ومات على الأرض رواد كثيرون في روسيا وأمريكا.. ولم يتوقف شيء.

ولن تخمد روسيا كل محطاتها النووية بسبب ما حدث في «شرونيبل»، وكذلك لم تتوقف أمريكا يوم تسرب الإشعاعات من إحدى محطاتها.

فالعلماء يصلحون الأخطاء ويتقدمون خطوة. وكلما تقدموا كانت المخاطرة أكبر.

الحروب هي أم الاختراعات، فمن أجلها كانت السيارة والطيارات والصواريخ وسفن التجسس واحتلال الكواكب الأخرى: ولذلك فلا نهاية للتقدم من أجل التفوق على الأعداء - وكلنا أعداء: أصدقاء اليوم هم أعداء الغد وهم أصدقاء ما بعد غد!

☆ ☆ ☆

لأول مرة يفكرون

لايزال الاتحاد السوفيتي (اتحادًا) بشكل ما.. والخوف لايزال قائمًا، فلن يبقى الاتحاد على هذه الصورة.. فبعض الجمهوريات استقلت، وبعضها لا حياة لها؛ إذ انقطعت صلتها بجمهورية روسيا.. ولكن الحكومة المركزية لا تتدخل في استقلال الجمهوريات، وسوف تبقي علاقات اقتصادية قوية.. ولم يتخذ الاتحاد السوفيتي اسمًا جديدًا.. فكلمة سوفيت معناها: مجلس.. فهو -إذن- اتحاد المجالس الاشتراكية.. فلا مجالس ولا اشتراكية.. وإنما جمهوريات رأسمالية - أو تريد أن تكون كذلك.

وشرط المساعدة الأوروبية والأمريكية هي أن ترى أن ما يسمى بالاتحاد السوفيتي قد اتخذ الطريق الصحيح إلى الرأسمالية الغربية.. وإلا.. فلا مساعدة في السوق أو في البنوك.

وجورباتشوف قد حذر أهله من المصير الذي سوف تلقاه يوجوسلافيا.. حرب أهلية بين الجمهوريات.. أو المصير اللبناني.. أي حرب بين الطوائف والعائلات..

ولكن يوجوسلافيا قد أدركت خطورة الكارثة. ولذلك أوقفت النار والدمار. وجلست تحسبها.. لقد انتهى القهر والطغيان والحاكم الواحد الأحد مثل: شاوشيسكو وغيره.

وحتى لو استقرت الأوضاع سياسيًّا في داخل روسيا، فإن الأوضاع الاقتصادية ستظل صعبة.. وسيظل البحث عن الرغيف هو مبدأ الشعب، وسيظل العثور عليه أبيض سمينًا أعز آمال الشعوب السوفيتية.. إن أمام الروس سنوات من الانتظار.

ولأول مرة تجد الشعوب السوفيتية أن لديها أملًا.. وأن هذا الأمل يمكن تحقيقه. لأول مرة ترى الشعوب السوفيتية أنها تفكر، فقد كانت الدولة تحتكر التفكير والتدبير.. لأول مرة تشعر الشعوب أن لها قضية، وأن الطريق واضح، وأنها قادرة علي الشكوى دون خوف، وعلى الغضب دون خوف.. وكلها مشاعر جديدة، وأحدث هذه المشاعر جميعًا: هو الجوع والأمان. فقد كانت الشعوب السوفيتية ترى أن الجوع قدرها.. الجوع ليس مشكلة لها حل، وإنما هو مثل لون البشرة، فهي لم تختر الجوع. فمن طبيعة الإنسان الشيوعي ألا يجد ما يريد.. انتظارًا ليوم القيامة، الذي تنهار فيه كل النظم الرأسمالية.. ويتوافر الطعام لكل فم! ولكنها الآن تشعر بالجوع الذي يمكنها أن تقضي عليه.. وسوف تزداد شعورًا بالأمان. هذه هي القضية لأول مرة من سبعين عامًا!

☆ ☆ ☆

اجعلها أطول

نجح مجلس الشورى في أن يلفت العقول إليه، بدراساته المتخصصة الجادة العميقة، وهكذا انتزع مجلس الشورى، بالعقل وبالمسئولية، احترام كل الناس، وهذا الاحترام معناه: أن هذا المجلس يعرف نبض مصر، ويقدم لها دراسات الجدوى، وروشتات العلاج لأمراض مصر النفسية والاجتماعية والاقتصادية.

وأصبح الناس يتوقعون أن يجيء تشخيص الداء والدواء من مجلس الشورى.. وأيقن الناس أن مجلس الشورى «مهموم» بقضايا مصر؛ لأنه مهتم بها.. والاهتمام والاغتمام بمعنى واحد، والذى غمني هو الذي أهمني أيضًا!

ويمكن وضع تقارير لجان مجلس الشورى والمناقشات في مجلدات في متناول كل الناس. ويمكن ضم كل هذه الدراسات في «موسوعة» موثقة لأعماق الأزمات المصرية.. وهكذا اكتسب مجلس الشورى هوية علمية عظيمة الاحترام في استفتاء شعبي حر. وكثير من أعضاء مجلس الشعب يشيرون إلى مناقشات مجلس الشورى، ويرون في ذلك حجة قوية لهم، فهم يستدلون على صحة أقوالهم ونظراتهم بما جاء في جلسات مجلس الشورى وتقاريره ومناقشاته التي لا تبغي إلا وجه الحق والإنسان والوطن.

وأنا أقترح على السيد صفوت الشريف وزير الإعلام، أن يجعل تقارير التليفزيون عن المناقشات في مجلسي الشعب والشورى أطول. وهو يعلم أن أمريكا تخصص قناة كاملة لمناقشات مجلس الكونجرس وتذيع أيضًا مناقشات اللجان كاملة دون تدخل من أي أحد - فهذا أيضًا من صميم الممارسة الديمقراطية والرقابة الشعبية على مندوبي الشعب.. وقد أمضيت ساعات طويلة في أمريكا أتفرج وأستمتع.. فالمناقشات جادة وهادئة، وكل عضو في البرلمان يعرف أنه مراقب من الناس الذين يمثلهم.

والناس أيضًا يعلمون أنهم قد وضعوا أقدار البلاد في هذه الأيدي النظيفة الأمينة الساهرة المكدودة الجادة.. وسوف تتحقق متعة الناس؛ إذا عايشوا مناقشات مجلس الشورى لأنها: جد × جد × صدق × إخلاص!

☆ ☆ ☆

..نصف البئر!

أغنية المطربة صباح تقول: وَصَّلْتِينَا لنص البير وقطعت الحبل فينا..

وترجمتها العربية: أنت أوصلتنا إلى منتصف البئر، ثم قطعت الحبل!

وهذا ما حدث للدول الشيوعية، التي أغرقها الاتحاد السوفيتي إلى نصف البئر، وإلى قاعها أيضًا.. ثم تركها هناك. فالاتحاد السوفيتي يريد أن يتفرغ لمشاكله: الجوع والتخلف والقهر والفساد.. فالدنيا من حوله تأكل وتشرب وتلبس وتغني وترقص وتحب، وعندها أمل في الأفضل.

كان جورباتشوف قد تزوج عشرين امرأة ينفق عليهن، وعلى الأولاد والمدارس والعلاج.. وفجأة اكتشف جورباتشوف أن زوجته الروسية، هي التي تستحق العناية كلها، وأنها أحق من هذه الزوجات الأجنبيات الخائنات اللاتي يبتززن أمواله وطاقته وصحته، فرمى يمين الطلاق عليهن جميعًا.

وأعطى كل واحدة الحق في أن تتزوج، وأن تعايش من تراه أقدر على إطعامها، ونقلها من عالم العذاب الروحي إلى عالم النعيم الرأسمالي.

ومن بينهن كوبا الدولة التي اختارها الروس صداعًا في دماغ أمريكا.. ونموذجًا للتحدي تحت شباك الرئيس الأمريكي وحلفائه.. وأنفقت روسيا على كوبا مئات المليارات من الطعام والشراب والصواريخ.. وفرضت أمريكا حصارًا سوف يشتد على كوبا، وكل من يحاول مساعدتها على أن تظل شيوعية كما أعلن الرئيس كاسترو أخيرًا.

ولكن كاسترو أصغر كثيرًا جدًّا من مثل هذه العبارات، التي لا صدى لها.. وسوف تحاصره أمريكا، ولن تجرؤ الدول اللاتينية على مواجهة العداء الأمريكي.. إذن سوف تسقط كوبا إلى قاع البئر.. أو تطفو بعد أن تتخلص من كاسترو.

وعلى الرغم من أن جورباتشوف قد وفر ألوف الملايين التي كان ينفقها على الدول الشيوعية، فإن هذه المليارات لا تكفي لإطعام الشعوب الروسية، مع أن روسيا دولة غنية جدًّا، ولكن الإدارة متخلفة، والأداء متخلف فاسد، والحكومة ضعيفة.. وكان جورباتشوف «رأس» الاتحاد السوفيتي.. أما الآن فليس إلا «تاجًا» على الرأس.. وهذا التاج من الممكن أن يزدان به أي واحد آخر.. وسوف نرى العجب في «الاتحاد؟!» السوفيتي!

☆ ☆ ☆

صافح الجميع!

كل ما طلبته إسرائيل قد نفذته أمريكا..

قالوا: لا عَلَمَ لفلسطين. لأنهم لا يعترفون بدولة اسمها فلسطين.. فلم ترفع أعلام جميع الدول على قصر المؤتمر.

وقالوا: ولا يحضر الفلسطينيون بالزي الوطني.. أي لا يضعون الكوفية أو الجاكتة والجلباب. فوافق الوفد الفلسطيني.

وقالوا: لو أعلن واحد فلسطيني أثناء المؤتمر أو قبله، أو ثبت لديهم أن أحدًا منهم له علاقة بالمنظمة؛ فسوف ينسحبون. وسكت الفلسطينيون ولم يقولوا شيئًا، وهي مغالطة طبعًا، فإسرائيل تعلم أن الوفد الفلسطيني يأتمر بأمر ياسر عرفات.. وأنه زعيم الشعب الفلسطيني في أي مكان. ولكن المهم ألا يعترف أحد بذلك علنًا. فليكن!

واستدرج شامير وفد سوريا إلى الرد عليه.. وعلى الرغم من أن وزير خارجية سوريا فاروق الشرع هادئ النبرة؛ فإنه عنيف المضمون.. وفي رده على شامير، ابتعد كثيرًا عن المطلوب منه.. لقد دحرجه شامير إلى الهجوم الشخصي عليه.. مما أزعج بيكر وأزعج رئيس الجلسة أيضًا.

وعرف العرب وإسرائيل أن اللغم العائم في المؤتمر هو رئيس الوفد السوري وأن إسرائيل إذا أرادت أن تنسف المؤتمر فسوف تتجه في كل ما تقول إلى الهجوم على سوريا.

الصحف تهاجم سوريا، ومدير مكتب شامير «بن أهارون» رجل سليط اللسان، هاجم الرئيس الأسد شخصيًّا. فقام وزير خارجية سوريا وهاجم شامير شخصيًّا، وأطلع العالم على صورته بأنه قصير القامة مطلوب القبض عليه، وأنه قاتل «برنادوت» وإرهابي!

ولما حاولت «ساره درون» السيدة الوحيدة في وفد إسرائيل مصافحة أحد أعضاء الوفد السوري، رفض أن يمد يده.. ولما حاول مندوب التليفزيون الإسرائيلي أن يفعل ذلك، رفض السوريون جميعًا - ولكنهم غدًا وبعد غد سيعانقون ويقبلون - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!

أما الوفد الفلسطيني فقد صافح الجميع؟!!

ولا أحد يعرف الآن إن كانت لاتزال هناك بقية لنسف الطرق لا رصفها، وتحقير السلام لا تحقيقه! ولكن مادامت هناك لقاءات؛ فسوف تكون مشاكل، ولكنها خطوة إلى الأمام!

☆ ☆ ☆

ناظر المشاغبين

ناظر مدرسة المشاغبين جورج بوش (الأب) قد تغيب؛ لأنه مشغول جدًّا بما هو أهم من كل الذي قالوه وكالوه في مؤتمر السلام.. ولكن ناظر المدرسة ترك وكيله في الجلسات يرى ويضرب ويطرح وينكت.. ويلمح بما يستطيع أن يعطيه من فلوس يمينًا وشمالًا وأجهزة علمية.. وقرض مضمون لإسرائيل بعد أيام.. ثم إن عنده انتخابات عامة، وكذلك إسرائيل.. وإن لديه مشاكل كثيرة داخلية وحزبية وروسية وألمانية ويابانية وصينية وإيرانية، وأن العرب وإسرائيل ليسوا جميعًا الوحيدين على حجر الرئيس الأمريكي، فهو يحمل علي كتفيه الرئيس جورباتشوف.

ففي البدء عندنا تكون الكلمة الجارحة.. وبعدها الضربة الدامية.. وبعدها المقاطعة وتوزيع التهم على الذين كانوا سببًا في فشل المؤتمر.

ولا يستطيع أحد هذه المرة أن يقول: إنهم الفلسطينيون - أبدًا - فقد نضجت دبلوماسية الشعب الفلسطيني، فقد ذهب في إرضاء أمريكا وتفادي المشاكل مع إسرائيل إلى أقصى درجة.. كما أن الوفد الفلسطيني كان مرنًا معتدلًا ضابطًا لأعصابه.. ويريد أن يحرك الموقف.. وهو في أعماقه يؤمن بأن السادات كان على حق.. وأن الذي عرضه السادات عليهم ورفضوه.. هو الذي يتحتم عليهم قبوله وهم صاغرون.. لقد ضاعت 13 سنة، ولكن المثل يقول: ما ضاع من عمرك ما علَّمك. وقد تعلم الفلسطينيون الكثير جدًّا.

والعالم الآن أكثر اقتناعًا بحق الشعب الفلسطيني في أن تكون له دولته المستقلة، وأن تعود الجولان وجنوب لبنان إلى أصحابها.. ليكون السلام شاملًا في الأعوام القادمة.

فمن الذي كان يستطيع أيام كامب ديفيد -الكامب.. إسطبل داود - أن يقول: إن الشعب الفلسطيني يصلي في المساجد والكنائس ويطلب من الله ابتسامة على شفتي شامير، ففيها الرضا والقبول عند سيد الأرض والكواكب الأخرى: بوش.. إن العرب يؤمنون بأن في التاريخ ابتسامتين خالدتين: ابتسامة شامير وابتسامة الجيوكندا - سبحان الله؟!

☆ ☆ ☆

ما يريده الأمريكان!

نكتة في مدريد تقول: إن زعيمًا فلسطينيًّا ذهب إلى وزير خارجية روسيا، يقول له: ماذا نعمل؟ فأجاب: ما يريده الأمريكان!

وهذا ما يفعله الروس.

وما تفعله إسرائيل أيضًا..

فبعد أحداث الخليج، لم يعد هناك إلا رأي واحد وقرار واحد وقوة واحدة في الدنيا: أمريكا!

وروسيا التي هي أعظم دولة منتجة للبترول في العالم، تبيع وترهن بترولها لأمريكا.

وجورباتشوف وصف نفسه: بأنه رئيس بلا دولة.. ثم إن ثورة جورباتشوف قد سبقته لدرجة أنهم يعتبرونه رجعيًّا، بل ومعاديًا للبروسترويكا التي أتى بها جورباتشوف.

وجورباتشوف رجل واقعي جدًّا.. فهو قد ذهب يستعجل مساعدة الرئيس ميتران، الذي أيد الانقلاب ضده، وهي غلطة وقع فيها ميتران، ضمن أخطاء كثيرة جدًّا، ليس أقلها اختيار رئيسة وزراء مثل أديث كريسون.. فحزب ميتران ممزق، والحكومة وراء رئيستها ممزقة أيضًا.

وكلام جورباتشوف إلى الوفود في مدريد، درس في السياسة العملية. فقد قال: إن لديه مشاكل كثيرة في بلاده، وإنها أهم جدًّا من أية مشاكل أخرى.. أي من مشاكل العرب وإسرائيل وكل مشاكل الشرق الأوسط.. وإنه ينصح العرب بأن يجدوا حلًّا لأن الشرق الأوسط لم يعد هامًّا ولا ومشاكله عالمية.. وإنما هو ينحدر إلى أن يكون مشكلة إقليمية.. وأن الغرب والشرق سوف ينصرفان عنها.. لأن هناك مشاكل أروع وأبشع.. ولأن دول العالم تتحول عن ماضيها، وتنظر إلى مستقبلها الجديد.. وأنها في صراع نحو المستقبل، وأن الصراع دموي تكنولوجي.. وأن هذه هي آخر فرصة للعرب أن يكون لهم هذا الصدى والالتفات العالمي.. فليس سياسيًّا من لا يعرف الانحناء والالتواء والوجهين والقبلتين، وأن يحب ما يكره ويكره ما يحب - والعرب قد فعلوا ذلك الآن.. ولكن يبقى أن يمضوا خطوة أخرى وأن يستمروا ويثابروا.. والضرورة لها أحكام، ومن أحكام الضرورة أن يلتقوا بعد مدريد في «بالميرا» أو الزيداني أو زغرتة.. أو الإسماعيلية!

☆ ☆ ☆

المستقبل الذهبي..

خاب أمل ثلاثين دولة إفريقية في الشيوعية.. (مثلًا: غانا وتنزانيا وزامبيا وأنجولا وموزمبيق وإثيوبيا).. فلو قرأنا خطب زعمائها من عشرين عامًا، لوجدنا العجب العجاب وهي تتحدث عن الطبقة الفقيرة والمستقبل الذهبي للشعوب السوداء.. ويوم تتكسر ظهور وأعناق الدول الاستعمارية التي تعيش على ثروات إفريقيا.. بينما الشعوب الإفريقية تقف جائعة.. فإذا عاشت فعلى فتات الموائد الأوروبية والأمريكية.. وأن يوم الحساب والانتقام قادم لا ريب فيه.. وسوف نجد هؤلاء الزعماء يتحدثون عن البطولة الحمراء في وجه الاستعمار الأوروبي والأمريكي، وأن بوادر الفقر والانهيار قد ظهرت في أمريكا واليابان.. إلخ.

هذه الدول عليها ديون تبلغ 270 ألف مليون دولار، ولن تستطيع سدادها. ومنتهى أملها أن تتقشف حتى تفي بهذه الديون. ولا حتى التقشف ممكن. لأن التقشف معناه أن تربط الأحزمة على البطون وتأكل نصف الرغيف بدلًا من الرغيف. ولكن المصيبة أن الملايين لا تجد نصف الرغيف ولا تستطيع أن تربط إلا الذل على البطون والعيون.

إن الدول الإفريقية تعيش الآن عصر «الهوان» الاقتصادي والسياسي، فقد ضللت الشيوعية زعماء الدول الفقيرة. وجاء الزعماء فضللوا شعوبهم.. ولم يبق أمام هذه الشعوب إلا أن ترفض الذل باسم الحرية والديمقراطية..

إلا أن تنبذ الدجالين من زعمائها.. فالذي فعله جورباتشوف في بلاده وفي الدول التي كانت تبتزه، وكان يسيطر عليها، أكبر دليل على الخيبة الكبرى التي أصابت العقل والقلب والمعدة في كل القارات!

يقول جورباتشوف: لم يعد لدينا أكاذيب جديدة، لقد أسرفنا في الوعود. وأسرفنا في استخدام اللون الوردي لكل شيء.. وجاء الصدق والإخلاص نهاية لكل هذه الأحلام المزيفة. بمنتهى الأمانة نحن كنا ضحايا أكاذيبنا..

وكذلك الشعوب الأخرى. ولكننا نملك شجاعة الاعتراف. وأنا أعترف بأننا فشلنا!

ولايزال كثير من زعماء القارة السوداء يكذب.. لم تسعفه شجاعة جورباتشوف؛ لأن مثل هذه الشجاعة تنبع من العظمة العقلية والشرف الثوري!

☆ ☆ ☆

المال والفضيحة..

مكتوب على أسرة كيندي المال والمجد والفضيحة..

فالرئيس كيندي عاش مريضًا موجوعًا بعموده الفقري.. ومصابًا بالإمساك المزمن مثل نابليون.. وله علاقات جنسية كثيرة جدًّا - طبيعي أن يكون شاب غني وفي قمة السلطة والشهرة جذابًا لكل جميلات الدنيا..

وأحبته أجمل الجميلات «مارلين مونرو» إنها فعلًا أجمل مخلوقات الله.. لقد رأيتها بعيني وهي تحفة فنية - سبحان الله.. وهي طيبة بريئة دفعوها إلى عرين الأسد.. وطبيعي أن تتباهى بهذه العلاقة، وأن تنقل ما يدور بينها وبين الرئيس.. وبسذاجة تحدثت عن خطة المخابرات الأمريكية من أجل اغتيال كاسترو.. فغيرت المخابرات أرقام تليفونات الرئيس حتى لا تتصل به مارلين مونرو.. ولم يعرف الرئيس أنهم غيروا الأرقام.. وتكاثروا عليها..

وأخافوها.. وأعطوها حبوبًا سامة.. ودفعوها إلى الخمر وإلى المنومات.. وجاء طبيب مجهول حقنها فماتت.. قتلتها المخابرات الأمريكية، حماية للرئيس.

وصدرت كتب كثيرة عن حياة مارلين مونرو، وعن موتها أكثر.. والسناتور كيندي هو الآخر كانت له فضيحة مع سكرتيرته.. التي ركبت سيارته وغرقت. واستطاعت فلوس آل كيندي ونفوذهم أن تُكَلْفِت هذه القضية، بما يؤكد أن البنت المسكينة هي الأخرى قد انتحرت.

وابن أخت كيندي قد اعتدى على إحدى السيدات بالقوة.. واستطاع المال والسلطان أن يسد فم هذه السيدة. إنها الفلوس التي تأتي بأقدر المحامين - أما المساكين الفقراء فهم وحدهم ضحايا القانون والعدالة الوهمية؛ لأنهم لا يملكون الدفاع عن أنفسهم. فما أكثر «المظاليم» في كل سجون الدنيا!

وفي الأسبوع الماضي ظهرت اعترافات عشيقة جميلة للرئيس كيندي، إنها الفتاة اليهودية جوديث إكزنر.. وكانت تقوم بدورين خطيرين في وقت واحد: عشيقة الرئيس وفي نفس الوقت مندوبة لدى المافيا.. تنقل رسائل منه وإليه.. وقالوا لها: لا تفتحي فمك.

وسكتت ثلاثين عامًا. ولما شارفت الموت، لم تعد تخاف من أحد فحكت حكايتها.. وهي قد احترمت الرئيس؛ لأنها أحبته، وخافت من المخابرات ومن المافيا.. فإحداهما قد نقلت إليها مرض السرطان الذي سوف تموت به!

☆ ☆ ☆

الكتاب: هدف!

أربعة رؤساء جمهوريين: نيكسون، وفورد، وريجان، وبوش (الأب)، وواحد ديمقراطي - كارتر - قد اجتمعوا من أجل مكتبة ريجان التذكارية.. وهذا الاجتماع هو الأول في تاريخ أمريكا.

قال كارتر: إنها فرصة لكم لكي تروا رئيسًا ديمقراطيًّا.

وقال ريجان وهو ابن نكتة: ولتعرف أننا أغلبية دائمًا!

أما الهدف فهو: الكتاب!

كانت أمريكا تنقصها المكتبات.. كان القارئ الأمريكي في حاجة إلى من ينقل إليه الكتاب. ولكن أينما يوجد إنسان مثقف، يوجد الكتاب، ولا شيء يدل على حضارة الإنسان إلا الكتاب واللوحة والمقطوعة الموسيقية..

وتشجيع الكاتب والفنان والمطبعة والاستديو، والدفاع عن حرية الجميع في مواصلة الإبداع، وبناء الإنسان والدفاع عن حريته في الحياة في سلام ورخاء!

وسوف تضم المكتبة كل ما يتعلق بسنوات حكم الرئيس ريجان: كتبه والوثائق الرسمية ومقابلاته.. والصور والأفلام والخطب.. وكل الزعماء الذين قابلهم وماذا قالوا؟ أما الوثائق السرية، فسوف تخضع للقانون، ولن يفرج عنها إلا بعد الفترة المحددة.. وسوف يكون لمعظم ما في مكتبة ريجان صور في المكتبة القومية.

ولو حاول أحد أن يقيم مكتبة لرؤساء مصر؛ فلن يجد شيئًا يضعه فيها سوي الصور والخطب.. أما الوثائق فليس من عادتنا توثيق لقاءات الرؤساء.. ولا حتى من عاداتنا أن نحتفظ بكل الوثائق الهامة، وإن كان الرئيس مبارك أكثر حرصًا على ذلك، ولكن وثائق الرئيس عبد الناصر ربما هي مقتنيات خاصة وكذلك الرئيس السادات.

أذكر أنني سألت عن أكثر من مائة شريط مسجل للقاءاتي مع الرئيس السادات، فلم أسمع من واحد أنه يعرف مكانها.. أما الأحاديث التي عندي فهي الخاصة جدًّا.. والتي طلب مني الرئيس السادات بصوته أن أحتفظ بها لنفسي وللتاريخ.. وبعضها تعليق ونقد لشخصيات عامة سياسية وأدبية وفنية.. وبعضها طلب ألا تنشر إلا بعد وفاته؛ إن رأيت ذلك مناسبًا.

وهكذا تمضي مصر في سياستها الفرعونية التقليدية: الناس والملوك يمحون آثار الملوك، أوراقهم وسجلاتهم وأشرطتهم المسجلة، وبذلك تفقد مصر ذاكرتها أولًا بأول!

☆ ☆ ☆

مشاكل كل مكان

من غير ضرب للودع وقراءة للفنجان، تستطيع أن تقول: إن القلق والخوف والاضطراب والحرب أصبحت كلمات يرددها أبناء الشرق الأوسط من جديد.. ففي كل ناحية مشكلة، وكل مشكلة لها مشكلة أخرى..

وبعد أن كان الناس يقولون: إن السلام هو الحل، أصبحوا يقولون: إن السلام هو المشكلة.. وكلما اقتربنا من التفاهم، ابتعدنا عن ذلك كثيرًا.

والمشاكل في الشرق العربي من كل نوع: التطرف الديني.. والعنف في مقاومة ذلك..

وبسرعة ظهرت مشاكل جديدة، كأن المشاكل القديمة لا تكفي لوجع القلب، مشاكل على حدود مصر والسودان.. ومشاكل المياه أو التهديد بها بين إسرائيل ولبنان والأردن.. بين سوريا والعراق وتركيا.. والنهر الليبي العظيم كان أفضل منه مصنع لتحلية مياه البحر.

ولا ألوم العرب؛ إذا استعاروا مشكلة الهوية المصرية أو العربية.. فيتساءلون: ومن هو العربي؟ ومن هو المسلم؟ ومن هو الصديق؟ هل هو الأمريكي أو هو العربي؟.. ومن هو العدو في الخليج؟ هل هو العراق أو هو إيران؟

ثم ما هذا الذي كنا نسميه بالقومية العربية؟ إن مثل هذا السؤال سوف يكون عصا موسى - عليه السلام - تأكل كل المشاكل الأخرى.. والناس سوف يتساءلون إن كانت هذه العصا التي في يد وزير خارجية أمريكا، عصا مايسترو أمريكاني، أو هي عكاز يتوكأ عليه في الدعاية الانتخابية.. أو هي عصا يخيف بها زعماء إسرائيل والعرب والعالم الثالث في معركتهم الانتخابية القادمة.

انظر يمينًا وشمالًا وفوق وتحت، واقرأ التاريخ قديمًا وحديثًا فسوف تجد أنه ما لم تكن العلاقة قوية جدًّا بين مصر والسعودية، فلا استقرار في الشرق العربي.. ولا أمل في النجاة.. فحرب الخليج مثلًا كيف كان يمكن حسمها لصالح الكويت والسلام؛ لو لم يكن القرار السعودي والقرار المصري؟ وأية مشكلة سوف تظهر، لابد أن تتطلع -وأنت على حق - إلى السعودية ومصر.

أما الذين يريدون نسف هذه العلاقة فهل أقول لك من هم؟ بالضبط كما تقول لنفسك!

☆ ☆ ☆

ملح علي جرح

بريطانيا حركت المواقع القديمة.. وألقت الملح الإنجليزي علي الجرح الألماني، عندما كشفت الستار عن تمثال أمام إحدى الكنائس، التي هدمها الألمان بمناسبة مرور سنة على ميلاد صاحب التمثال «سير أرثر هاريس»، الذي قاد الغارات الجوية على ألمانيا، فقتل هو وجنوده ثلاثة أرباع مليون ألماني.. والرجل يسمونه في بريطانيا «هاريس قاذف القنابل»، والتمثال من صنع فنانة بريطانية. وقد جمع المحاربون القدماء تكاليف هذا التمثال التي بلغت 200 ألف جنيه، وحضرت حفل الافتتاح ملكة بريطانيا الأم، وعدد كبير من قادة الطيران البريطاني والمحاربون القدماء.. وهذا الرجل قد مات من ثماني سنوات.. ومعنى ذلك أن هذا الاحتفال رسمي، وتمجيد رسمي لمن قتل مئات الألوف!

وقد تضايق الألمان في العاصمة البريطانية وتظاهروا ضد مجرم الحرب الذي تحتفل به بريطانيا، دون مراعاة لشعور الدولة العظمى الصاعدة: ألمانيا!

وفي ألمانيا قامت مظاهرات مضادة واحتفلت بمرور خمسين عامًا على إطلاق الصاروخ (ف - 2) الذي هدم لندن وقتل عشرات الألوف. وقد تجمع الألمان في مدينة بنميونده التي كانت قاعدة لإطلاق الصواريخ، وقد استولى عليها الأمريكان، ونقلوا علماءها إلى أمريكا. وفي مقدمتهم المخترع الألماني «فونر فون براون» الذي لولاه ما استطاعت أمريكا أن تنطلق إلى الفضاء الخارجي والكواكب الأخرى.. فالألمان في أمريكا، والألمان في روسيا هم الذين قاموا بتطوير صناعة الصواريخ وسفن الفضاء.. والنكتة تقول: إن صاروخين أحدهما روسي، والآخر أمريكي، التقيا في الفضاء، ولم يفهم الروسي ما يقوله الأمريكي.. فقال أحدهما للآخر: إننا بعيدون عن عيون المخابرات الأرضية، فلنتكلم اللغة الألمانية!

فهذا الصاروخ الذي هدم لندن، هو الذي رفع أمريكا إلى السماء.. بل رفع التكنولوجيا الحديثة إلى أعلى درجات التفوق والطموح.

وحمل المتظاهرون الألمان في مدينة كولونيا التي ضربها الحلفاء من خمسين عامًا، لافتات تقول: آسفون يا كولونيا - آسفون يا درسدن.. آسفون يا دلسدورف لما حدث!

وجاء الألمان المدنيون وألقوا بالزبالة على التمثال الإنجليزي، وألقوا البيض على الذين يحتفلون به!

☆ ☆ ☆

حرب الخليج

هناك حرب أخرى في وزارة الدفاع الأمريكية، حرب حول حرب الخليج، ومن الذي انتصر؟ أو من الذي كان حاسمًا في النصر؟ هذه الحرب تدور حول الدروس المستفادة. من الذي أعطى الدرس؟ ومن الذي استفاد؟

إن حرب الخليج قد اشتركت فيها الأسلحة الأربعة: الطيران، والبحرية، والقوات البرية، ومشاة البحرية.

أما الطيران: فقد كان هو الأهم، فهذه هي أول مرة في التاريخ استطاعت القوات الجوية أن تكسب حربًا.. والقوات البرية تقول: يستحيل أن يتحقق النصر بلا قوات برية ساحقة، وأن الحرب بدأت في الجو وانتهت على الأرض.

وهناك خلافات لغوية بين الأسلحة الأربعة، فهل كانت القوات الجوية تقوم بعمليات عسكرية أو أنها كانت حملة عسكرية؟

والجواب: إن العمليات العسكرية تساند وتساعد، ولا حملات بلا عمليات.

سؤال آخر: هل كانت القوات البحرية تتلقى أوامر من القيادة الجوية.. أو أن الذي كان بينهما هو التنسيق المستمر بين القيادتين؟

ثم كانت هناك خلافات بين أنواع الطائرات: هل الطائرة الشبح هي السبب الأول في التفوق الجوي ثم السيادة الجوية؟

هناك رأي يقول: بل إن «الطائرة ف - 117 ألف» هي التي استحال على وسائل الدفاع الجوية العراقية أن ترصدها أو تتابعها.. فهذه الطائرة لم تكن في حاجة إلى طائرات تحميها ولا إلى طائرات تشوشر أو طائرات تخترق الرادار العراقي. فقد كانت هذه الطائرات وحدها صاحبة الضربة القاتلة للطيران والدفاع العراقي..

وليست الأساطيل وحاملات الطائرات وحدها التى ضربت، وقصمت، وحسمت.. وإنما مشاة البحرية أيضًا.

وسوف يصدر تقرير رسمي عن حرب الخليج من صورتين: واحدة سرية للقيادات العسكرية.. وواحدة لتكون في متناول الملايين بعد حذف كل المناقشات والخلافات بين القادة، حول من هو الذي هُزِم ومن هو الذي انتصر، ولا ما هي بالضبط أسباب دخول حرب الخليج؟ هل هي فرض النفوذ أو هي البترول أو هي مكانة أمريكا في العالم، أو التمهيد لفرض النظام الجديد بالوجود الأمريكي في كل المناطق الحساسة في العالم؟!

☆ ☆ ☆

مناعة الرئيس

علماء أمريكا وهولندا مشغولون في البحث عن الأسباب التي أدت إلى إصابة الرئيس بوش (الأب) وزوجته وكلبته بمرض واحد، هو الخلل في جهاز المناعة الذاتية - أي دفاع الجسم عن نفسه أي أن الجسم بدأ ينتحر.. تمامًا كما تركب سيارة وتفككها، وتلقي بها قطعة قطعة.. ثم تلقي بعود كبريت تحت مقعدك وأنت تقودها.

ويرى العلماء أنه لابد من دراسة البيئة والحالة النفسية في السنوات الأخيرة.

ويقولون: إن إصابة الرئيس وزوجته بنفس المرض مجرد صدفة.. لأن هذا المرض لا يعدي.. المرض اسمه «جريفز» وهو اسم الطبيب الذي اكتشفه من 130 عامًا.

وانفتح باب الاجتهاد في تشخيص مرض الرئيس، أما نائب الرئيس فقال: إنها ذرات الرصاص التي تسقط من مواسير المياه في البيت الذي سكنه بوش ثماني سنوات.

وتلقى الرئيس بوش ألوف الخطابات من الشعب الأمريكي، وكل واحد له تجربة.. وله رأي ورؤية.. ومن ألطف هذه الخطابات أن واحدًا طلب إلى الرئيس بوش أن يخاف الله، ويأكل الكرنب والقرنبيط.. وكان الرئيس قد أعلن أنه لا يحب القرنبيط، ولا لونه ولا رائحته ولا طعمه، ولا يتصور أحدًا يأكله.. وقد أدى ذلك إلى بوار القرنبيط في أمريكا.. ثم نبهه الخبراء إلى أن القرنبيط هو أحب الأطعمة لدى الشعب الروسي.. وكل البيوت في روسيا تنبعث منها رائحة القرنبيط والكرنب والبصل، وأن الرئيس جورباتشوف يغسل أسنانه قبل حضور مؤتمرات القمة!

وقالوا: إن الذين يأكلون القرنبيط والفجل والجرجير والبصل لا يصابون بهذا المرض.. ولأن هذا المرض طويل الأجل، فأمام الرئيس بوش فرصة لكي يبوس القدم ويبدي الندم على غلطته في حق القرنبيط.. فلا علاج له سواه!

والذين رأوا الرئيس والدموع في عينيه وعلى خديه وهو يتحدث عن ليلة ضرب العراق، قالوا: إن الرئيس مريض فعلًا!

ويؤكد العلماء أيضًا أن هذه الوصفة الشعبية صحيحة.. ولكن الأطباء لا يعرفون كيف يقنعون الرئيس بذلك ليتناوله قبل المعركة الانتخابية القادمة، وقبل أن يتوتر ويقلق ويأرق - وليس ما تأكله الكلبة - مهما كان- علاجًا لها من مرض الرئيس وحرمه.

☆ ☆ ☆

بالون اختبار

الله على ما أقول شهيد: فقد طلب مني الرئيس السادات أن أنشر خبرًا صغيرًا مثيرًا مروعًا في مجلة «أكتوبر». وقال: انشر وانتظر ماذا سيكون رد الفعل - إنها حيلة تلجأ إليها المخابرات كل يوم يا أنيس، بصوته وطريقته الريفية في الكلام!

ونشرت أن الرئيس السادات يريد أن يمد إسرائيل بمياه النيل عبر سيناء، لكي يتوضأ المصلون في المسجد الأقصى بماء النيل.. ويكون لهم بمثابة ماء زمزم.

وكان من رأي السادات أنه عن طريق اعتماد إسرائيل على ماء مصر، يمكن الضغط عليها، ما دامت ليست لدينا وسائل أخرى للضغط.. فلا عندنا فلوس في البنوك، ولا عندنا بترول، ولا عندنا جالية ضخمة في أمريكا لها أعضاء في الكونجرس.. إذن هو الماء!

ويوم دعا السادات السيد بيجين لزيارة مصر، اهتدى إلى فكرة شيطانية وهي أن يكون في فندق أوبروي بأسوان؛ ليجد الماء حوله في كل مكان.. وعلى مرأى من الجزيرة التي زعم أنه كان يعيش فيها أجداده اليهود من ألوف السنين.. وكان من رأي السادات أن هذا المنظر الساحر ليلًا ونهارًا لرجل ليس عنده ماء، سوف يجعله يشير إلى حاجة إسرائيل إلى الماء.. والماء له دلالات عميقة عند اليهود.. فموسى عليه السلام أُلقي في النيل ونجا..

ثم هرب من مصر وانشق لهم الماء ونجوا، وظلوا تائهين أربعين عامًا.. ولما اقترب موسى من «أرض الميعاد»، رآها ولم يدخلها..

وتضايق السادات من أن بيجين كانت أعصابه قوية.. فلم يشر إلى الماء، ولكن أبدى دهشته لهذه الفزورة: كيف يكون عندنا كل هذا الماء، وكل هذه الصحاري أيضًا؟!

أما الذي قاله لي بيجين فكان عجيبًا، قال: لا أفهم أن يكون النهر مليئًا بالماء، وشاطئ النهر ليس مزروعًا.. كيف تتركون هذا الشاطئ من أسوان إلى القاهرة ليس مزروعًا؟!

ولم يجد، ولم أجد إجابة عن ذلك!

☆ ☆ ☆

والله لا أفهم!

والله العظيم ثلاثًا أنا لا أفهم الرئيس القذافي.. ولا أعرف له رأيًا في الحرب أو في السلام.. ولا أعرف كيف يكون له رأي في الحرب، وهو لم يجربها.. وكيف يكون له رأي في السلام وهو لم يعرفه؟!.

ما الذي يريده الرئيس القذافي الذي اتهم بالخيانة كلَّ العرب.. من أنور السادات حتى حافظ الأسد وعرفات.. السادات لأنه انتصر في الحرب طريقًا إلى تحقيق السلام.. والأسد لأنه يريد أن يحرر الجولان، وعرفات لأنه يريد أن يسترد أرض فلسطين.. فما هي الجريمة؟

هل يستطيع أن يحارب هو، وهل حارب قط.. وهل ساعد المتحاربين بمليم واحد.. إن الرئيس القذافي هو «أبخل» الرؤساء العرب على الإطلاق.. لم يدفع قرشًا لأحد.. وإذا دفع فإنه يفضحه.. ولذلك لا هو أعطى، ولا أحد يريد.. بينما هناك زعماء عرب لا تعرف يدهم اليسرى ما أعطت اليمنى، احترامًا لأنفسهم، وتقديرًا لأزمات الآخرين.

القذافي - وتابعه عبد السلام جلود - إذا أفاق، فإنه يشتم العرب. وإذا انتشى؛ فإنه يشتم الأمريكان، فهو في كل الحالات يتهم سكان الأرض بالخيانة.. لأي شيء للنظرية الليبية.. فما هي النظرية الليبية في أي شيء؟.. لا أحد يعرف، وخصوصًا عبد السلام جلود.. الذي قال لنا عندما جلسنا إليه: إن الشارع المصري كله يؤيد صدام حسين.. وسألته إن كان يتحدث عن المصريين في مصر أو في العراق.

لقد كانت لديه الجرأة أن يحدثنا نحن عن مصر وينصحنا.. من حقه أن يفعل ولكن من حقنا أن نعرف ما هي مؤهلاته السياسية؟ وما هي تجاربه العسكرية؟ وكيف اكتسبها في ليالي الفرفشة في كل فنادق الدنيا؟!

إن كثيرين يجب أن يعرفوا الحياء في ليبيا.. وأن يعرفوا مقاسهم وحجمهم في هذه الدنيا، إنها الفلوس التي تتدفق من تحت أقدامهم.. فهم لذلك يفكرون بأقدامهم.. فأفكارهم تراب يجب كنسه أولًا بأول!

لو أحد يدلني على موقف واحد لليبيا يخدم قضية عربية.. أو أضاف شيئًا من المودة والصداقة وحسن الجوار والسلام.. أما الكلام فكثير وأما الخُطب فطويلة.. وأما ما ينفع الناس، هنا أو هناك، فلا شيء!!

☆ ☆ ☆

تعليق الرئيس

عندي تسجيل طويل بصوت الرئيس السادات تعليقًا على سلسلة «في صالون العقاد - كانت لنا أيام» والتي كنت أنشرها في مجلة أكتوبر، وكان السادات يعلق على أسلوبي، وعلى طريقتي في عرض وشرح القضايا الفلسطينية، والسياسية والأدبية، وتاريخ كامل لجيلي من الأدباء والمفكرين.. وكيف أنه اختلف مع الأستاذ العقاد في موقفه السياسي.. وقال: إنه لم يكن يعرف أن في مصر صالونات أدبية.. لقد غاب في مشاكله السياسية..

وأسعدتني هذه المفاجأة، فلم أتوقع أن تكون للسادات اهتمامات أدبية فلسفية.

ومفاجأة أخرى: فقد تلقيت برقية من الكويت، ولم أكن أتوقع هذا التقدير العظيم.. أما صاحب البرقية فهو كاتبنا اللامع أحمد بهاء الدين- شفاه الله -. فقد جاء فيها: إن هذا الكتاب هو أحسن ما صدر في اللغة العربية من خمسين عامًا.

ورددت عليه أنني لو عرفت أنه سوف يقرأ مثل هذه الدراسات الأدبية؛ لجعلتها أجمل وأكمل!

ومفاجأة ثالثة: عندما زرت الأمير أحمد فؤاد وجدت عنده كتابي «في صالون العقاد».. وهو كتاب بعيد تمامًا عن اهتمامات الأمير. ولكن عندما تناولت الغداء مع الأمير أحمد فؤاد وزوجته الجميلة الأميرة فضيلة أدركت أنه مشغول جدًّا بكل ما هو مصري.. ولا شيء يحزنه إلا أنه بعيد عن مصر.. وله مطالب متواضعة جدًّا: أن يكون له جواز سفر دبلوماسي مثل كل ملوك الدنيا وأمرائها.. وأن تكون له شقة أو فيلا.. وأن يحصل على تسجيل لصوت والده الملك فاروق.. انتهت كل أحلام الأمير أحمد فؤاد، الذي كان ملكًا لمصر، وملكًا سابقًا وهو لايزال طفلًا رضيعًا من 39 عامًا!

وهو إنسان طيب مهذب، ويعمل في بيع الأراضي والعقارات، ويسكن في شقتين واحدة لاستقبال الضيوف، والتي فوقها يسكنها هو وأولاده الصغار - اثنان وُلِدا في مصر والثالث ولد في المغرب.

أما شقته فهي صغيرة وعلى جدرانها صور أجداده ووالده - طبيعي أن تنتقل إليه مصر، لأنه يريد أن ينتقل هو إلى مصر!

☆ ☆ ☆

خطف الرئيس!

من أهم أحداث هذا القرن العشرين إرسال بوش (الأب) لقوات أمريكية لاعتقال «نورييجا» رئيس جمهورية بنما، واستسلامه في سفارة الفاتيكان، ليواجه حكمًا بالسجن 145 عامًا، ودفع غرامة قدرها مليون دولار!

وتهمة الرئيس نورييجا: أنه كان العقل المفكر والمدبر لأكبر شبكة مخدرات في العالم تصب كلها في أمريكا.. وتبدأ شحناتها من كولومبيا.. وهي جريمة يستحق عليها الشنق ألف مرة!

ولكن نورييجا كان عميلًا للمخابرات الأمريكية من عشرين عامًا، وتقاضى مبالغ طائلة على جمع المعلومات عن المخدرات، وعن الانقلابات السياسية. ثم إنه هو الرجل الذي باع صواريخ «إكزوسيه» الفرنسية لبحرية الأرجنتين؛ لإغراق الأسطول البريطاني في حرب «فوكلاند».

ولم يقم نورييجا بأية خطوة سياسية أو تآمرية إلا بعلم من الرئيس بوش، الذي كان مديرًا للمخابرات سنتي 1976 ، 1977 ثم كانت الصلة عميقة به، عندما كان نائبًا للرئيس ريجان لثماني سنوات.

ويقول محامي نورييجا: إن عددًا كبيرًا من طياري المخابرات الأمريكية قد ساهموا في تهريب المخدرات وبيعها لشراء أسلحة لمقاومة الحكومة الشيوعية في نيكارجوا.. وكانوا يتلقون تعليماتهم من الرئيس بوش شخصيًّا -

تمامًا مثل نورييجا.

وكان لنورييجا شاهد إثبات واحد، يؤكد أن نورييجا لم يخرج عن الخط وعن تعليمات بوش.. هذا الشاهد مات في حادث سيارة، وماتت معه أسرار كثيرة!

فما الذي جعل الرئيس بوش ينقلب بهذا العنف على عميله نورييجا؟! يقول محامي نورييجا: إن الرئيس بوش قد طلب إلى نورييجا أن يبعث بقوات لمحاربة الحكومة الشيوعية في نيكارجوا.. وتجرأ نورييجا على رفض طلب الرئيس، وهذا يكفي طبعًا.

ونورييجا يقيم في زنزانة أنيقة فخمة مزودة بكل ما يحتاجه من ضروريات وكماليات: تكييف، وتليفزيون، وفيديو، وتليفون، وثلاجة، وغسالة، وبار. قد كلفت الحكومة الأمريكية ربع مليون دولار حتى الآن، أما شركات السينما فهي تستعد لعمل أروع أفلام الجاسوسية بعنوان «زنزانة الديكتاتور».

☆ ☆ ☆

الخل الوفي!

واحد من الناس الطيبين عندما سُئل عن معنى المستحيل؟ قال: الغول والعنقاء والخل الوفي.

أي أنه من المستحيل أن تجد الصديق المخلص، وأن تجد هذا الطائر الخرافي الذي اسمه العنقاء، وكذلك الغول. وليس من الضروري أن تسأل لماذا هي جميعًا مستحيلة؟ وإنما هي وجهة نظر واحد من الناس عاش ولم يجد من الناس صديقًا مخلصًا.

واحد آخر طيب وصف المستحيل بقوله:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

وصار البَرُّ مرتع كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب

يريد أن يقول: إن الغراب إذا أصبح لونه أبيض، والزفت أصبح في لون اللبن، ومشت الحيتان في البر والذئاب في البحر، فسوف يعود إلى أهله، ولا داعي لأن تناقش إن كان هذا ممكنًا؟ فأنا شخصيًّا رأيت الغراب الأبيض في حديقة حيوانات مدينة سيدني بأستراليا.. وأما أن الذئاب تمشي في البحر، فهي تمشي في البحر والبر والجو أيضًا. وأنت تعرف من هم الذئاب!

ولكن بعض الناس من الممكن أن يجدوا مستحيلات من نوعٍ آخر، لم تعد مستحيلة. مثلًا كان «فورد الأول» ملك السيارات قد أصدر بحثًا عن «اليهودي العالمي»، وكيف أن اليهودي العالمي يريد أن يبتلع العالم كله، وأن يخرب بيت أي إنسان في أي بلد.. وضغط عليه اليهود حتى تنكر لهذا البحث. وسحبه من الأسواق. ومنذ أيام افتتح «فورد الثاني» ابن فورد الأول مصنعًا كبيرًا في إسرائيل، وقد سرق اللصوص اليهود بعض الوثائق من سيارته - فمن كان يتصور ذلك؟!

ومنذ أيام أيضًا ذهب المليونير روكفلر إلى موسكو.. وفي شارع كارل ماركس رقم 1، افتتح فرعًا للبنك الذي يملكه. هذا البنك سوف تودع فيه ملايين الدولارات لاستثمارها في البحث عن البترول والغاز الطبيعي في سيبيريا!

وهذا «برجنيف» و«فيلي برانت» يتلاقيان ويضحكان ويتفقان علي مشاريع اقتصادية وسياسية.. وقبلهما ذهب «نيكسون» إلى أحضان «ماوتسي تونج»، ومن بعده إلى أحضان برجنيف.. ولا شيء يدل على الحب أو الغرام أو العشق أو العسل، ولا على أن السماء سوف تنطبق على الأرض.. وإنما هي مصالح هنا وهناك.. وفلوس تروح وتجيء وبنوك تعمل ومصانع ترتفع مداخنها.. وبعد عامين سوف تتعانق سفن الفضاء الأمريكية والروسية ويدور بينهما مالا نعرف على ارتفاع مئات الأميال من الأرض..

وليس هذا مستحيلًا، ولن يشيب لها الغراب.. وإذا شاب الغراب؛ فليس أسهل من أن يصبغه أي إنسان بأي لون.. فليس هناك مستحيل.. وإنما المستحيل أصبح معناه

«الممكن البعيد».. أو الممكن الذي يقف بالباب.. ولكنها الفلوس التي لا تعرف دينًا ولا وطنًا.. وهي السياسة التي معناها دائمًا: فن السفالة الأنيقة!

☆ ☆ ☆

وعادت طابا

الحزن قد أسكت عددًا كبيرًا من النصابين والمهرجين والمرتزقة الذين كانوا يقولون: في المشمش إذا عادت طابا، لأن العالم العربي كله يريد إذلال مصر ومعاقبة أنور السادات على اتفاقية كامب ديفيد، وعلى وقف حرب أكتوبر قبل دخول تل أبيب واستعادة القدس والجولان والضفة والقطاع.. ولا أعرف أين البيه والهانم اللذان وقفا في بغداد يصرخان: أنقذ القاهرة يا صدام؟!

لم نقرأ لأحد من أصحاب الأقلام المستعارة والحناجر الغليظة والجيوب الكبيرة سطرًا واحدًا عن تحرير مصر المحتلة منذ الهزيمة العسكرية. كان الاحتلال هو الأفضل وهوان مصر هو الأكمل.

والشكوى والبكاء على الماضى وعلى العصور الذهبية لمصر الحديثة أيام الهزائم المتوالية في اليمن وفي سيناء وفي سوريا! ولا كلمة!!

ولا قرأنا تبرئة للرئيس حسني مبارك من المشاركة في المساومة على سيادة مصر؟! لقد قالوا: إن الرئيس مبارك هو الآخر موافق على اتفاقية كامب ديفيد وعلى السلام مع إسرائيل بأي ثمن.. والثمن هو أن يترك لهم طابا..

وليس التحكيم الدولي إلا مبادرة للتستر على هذه الخيانة. ولا كلمة قيلت عن سياسة العقل والحكمة والنفس الطويل للرئيس مبارك!

فكيف الحال الآن؟ أين ذهبت بنا سياسة السلام.. سياسة المواجهة والاتفاق على المفاوضة. مهما كانت عنيفة ومهما كانت ملتوية - فهذا كله من صميم السياسة. فالمفاوضات ليست عقد قران أو تقسيم تركة.. ولكن سيادة دولة على أرض لها أو ليست لها.. لابد أن نتواجه وأن نتفاوض وألا نتوقف لحظة واحدة عن حشد كل قدراتنا في الداخل والخارج، والمناورة والمداورة. وقد حدث فعاد لنا ما هو لنا، وما سوف يبقى لنا، ولم يطرأ أي تغيير على أية حدود عربية أخرى، ألا يستحق ذلك كلمة، أو اعتذارًا، عملًا بحكمة علي بن أبي طالب: الرجوع إلى الحق فضيلة - إلا إذا كان من رأيهم أن طابا ليست من حق مصر، وإلا إذا كان التمسك بها ليس فضيلة.. المهم أنها عادت - وإن شاء الله مانطقوا!

☆ ☆ ☆

حرب المعلومات

اكتشف الأمريكان أن الروس أفلحوا في غسل مخ عدد من الأسرى. وجعلوهم يظهرون في التليفزيون يعترفون بجرائم لم يرتكبوها، ثم يجاهرون بعدائهم لأمريكا والنظام الأمريكي. ولم يفلح أحد في تغيير مواقفهم!

فانشغلت المخابرات الأمريكية بكيفية غسل مخ أي إنسان - أي نزع المعلومات من العقل وسحبها تمامًا. ووضع معلومات جديدة مختلفة تمامًا، فاختارت طبيب النفس العالمي «د. كاميرون» لهذه المهمة الخطيرة.

أما أسلوب د. كاميرون فمعروف عالميًّا. ولكنه أدخل عليه تعديلات بشعة فهو أولًا يسيطر على المخ الإنساني.. وذلك عن طريق الصدمات الكهربائية.. ثم يعطيه عقاقير تجعله ينام عشرة أيام متوالية.. وتتوالى الصدمات أثناء النوم.. مع سماع تسجيلات لمدة 16 ساعة في اليوم.. يسمعها الشخص الضحية من ميكروفون تحت المخدة.. ويظل هذا الشخص معزولًا، وفي غرفة مظلمة هادئة تمامًا ثلاثة أشهر.

هذه المرحلة يسميها د. كاميرون فك روابط المخ.. فك «تعليب» المخ.. وبعد ذلك يعيد برمجة المخ وتعليب المعلومات التي يريدها. وفي هذه المرحلة يكون الشخص كالطفل.. بل طفل عاجز عن عمل شيء أو تقرير شيء..

وهذه هي مرحلة الطفولة التى تقوم فيها المخابرات بدور الأم.. في جو هادئ لطيف رقيق، مع عناية شديدة في المستشفى أو المعمل الذي تجرى فيه التجارب.. ومع الطفولة ينمو القلق والفزع.. وهنا تدار أشرطة مسجلة تؤكد له كراهية المجتمع - هو يكره المجتمع والمجتمع يكرهه، وهنا تدخل المخابرات فتعيد «برمجة» المخ و«تعليب» المعلومات التي تريدها مع استخدام عقاقير الهلوسة.

ومنذ أيام حكم القضاء الكندي بنصف مليون دولار لكل واحد من سبعة سحبت المخابرات الأمريكية عقولهم إلى الأبد!

وقد استخدم الأمريكان هذه المعالجة مع خاطفي الرهائن الأمريكان في بيروت سنة 1987 - منتهى الوحشية في حرب المعلومات!

☆ ☆ ☆

بانوراما أكتوبر

إن كنت نسيت ماذا حدث في حرب أكتوبر 1973؛ فاذهب مرة وثلاثًا إلى بانوراما ملحمة السادس من أكتوبر 1973 في مصر الجديدة.. أروع معالم مصر الحديثة.. تحفة معمارية وروعة فنية لونية موسيقية.. إنها دقائق عميقة من الزمن.. تهزك بعنف وتذيب دموعك كما ذابت دموع أرملة الشهيد بلدياتي أحمد حمدي، عندما ذهبت لترى كيف انتقل زوجها البطل وألوف غيره إلى جنات النعيم، ولم تنسه مصر، ولن ينساه التاريخ العسكري الذي سجل للمقاتل المصري إعجابًا عميقًا..

وعلى يمينك وأنت في الداخل، الأسلحة المصرية العنيفة - المتاحة لنا في ذلك الوقت - وعلي يسارك الأسلحة الإسرائيلية المتطورة جدًّا، والتي قدمتها أمريكا مع عظيم الاحترام لإسرائيل في كل أيام المعركة. فليس السلاح -إذن - وإنما هو المقاتل المدرب المؤمن الذي دافع عن أرضه وشرفه، هو الذي انتصر للأرض والوطن، وارتفع علمه عاليًا شبرًا شبرًا 16 عامًا حتى مارس سنة 1989!

لقد أعجب الرئيس مبارك بمثل هذه البانوراما في كوريا الشمالية، فطلب إلي الرئيس كيم أيل سونج واحدة في مصر. فجاء الفنانون الكوريون يرسمون ويصورون ويدرسون وينقلون بعيونهم من ألوف الصور عشرات المواقع والجنود، والضباط المصريون أمامهم وحولهم يملئون عيونهم ووجدانهم، حتى كانت هذه التحفة الفنية الإلكترونية التي تنطق بالعربية، والإنجليزية، والفرنسية والألمانية - قال لي مسئول إسرائيلي: هل يرضيك هذا؟ فقلت له: جدًّا!

وتذكرت صورًا بشعة لما فعلته القوات الإسرائيلية بجنودنا سنة 1967 - صور كريهة نحاول أن ننساها.. مثلًا: صور لميدان المعركة وقد امتلأ أحذية.. والمعنى أن المصريين قد تركوا أحذيتهم وهربوا.

وصورة لعدد من الكلاب.. تأكل الجثث المصرية.. وصور لحركات بالأصابع بذيئة، وغير ذلك من الرموز الشنيعة، التي نسيناها.. أما هذا الذي في البانوراما من روعة التخطيط والأداء والشرف، فيجب ألا ينساها هذا الجيل والأجيال القادمة!

☆ ☆ ☆

حاكموا الصغير

كنا نقول في المثل الشعبي: إن الذباب الأزرق لن يهتدي إليه؛ لأن هذه الحشرة هي الوحيدة القادرة على أن تدخل وتخرج دون أن يهتدي إليها أحد. انتهى هذا المثل وهذه القوة الخارقة لمثل هذه الحشرة، فقد هبطت طائرة ألمانية - وليست ذبابة - فوق رأس زعيم الروس لينين في قبره في الميدان الأحمر بموسكو، مخترقة روسيًّا من غربها لشرقها دون أن يدري بها أحد - لا رادار ولا ليزر ولا أقمار تجسس! فضيحة لكل الاستحكامات السوفيتية وضربة لخرافة الدول المنيعة التي لا يستطيع الذباب الأزرق أن يتسلل إليها!

كما أن الفرقاطة الأمريكية المزودة بأجهزة لقراءة أفكار جنودها وضباطها، وجنود الأعداء أيضًا، استقرت فيها الصواريخ التى أطلقتها الطائرات العراقية، هذه الصواريخ طراز «إكزوسيه» فرنسية الصنع، وهي التي أغرقت الأسطول البريطاني في جزر فوكلاند، ولم يستطع الرادار الأمريكي والإنجليزي أن يتنبأ بمسار هذه الصواريخ!

وقصر باكنجهام تسلل إليه أحد الشبان من باب السلم حتى دخل على الملكة في غرفة نومها - ووراء الأسوار عيون سحرية وشبكات تليفزيونية.. ودخل البيت الأبيض عدد لا بأس به من الخادمات حتى سرير الرئيس كيندي.. ودخل الحشيش والأفيون البيت الأبيض في رياسة كارتر وريجان.

ولم تشأ أمريكا أن تجعل من ضرب فرقاطتها قضية، فهذا الأسبوع يصادف مرور عشرين عامًا على ضرب إسرائيل لسفينة التجسس ليبرتي.. الفارق بين الحادثتين: أن إسرائيل ضربت السفينة الأمريكية عمدًا، والعراق ضربتها خطأ!

ومن السخافة أن تحاكم روسيا هذا الطيار الألماني بتهمة الدخول من غير إذن: إن الخدمة التي أدَّاها هذا الشاب لروسيا لا يمكن تقديرها بأي ثمن - فقد كشفها وفضحها فليست منيعة الأجواء، كما كانوا وكنا نتوهم، ولابد من محاكمة كل عيونها وآذانها الإلكترونية والرادارية وتغييرها!

☆ ☆ ☆

وجاءت الفكرة

انتهت السوق الخيرية لصالح الديمقراطية وظهرت سلع واختفت سلع واستطاع البائع الشاطر أن يبيع أكثر، وكذلك البائع صاحب الصوت الغليظ. انتهت. مبروك للوجوه الجديدة و«هارد لك» للوجوه التي اختفت. المهم أن السوق فتحت أبوابها، وباع واشترى الناس، وكسبت مصر.

وبعد التهاني، والتعازي والامتنان لله والشعب، واتهام الحكومة، نستأنف حياتنا العادية ونشغل أنفسنا من جديد بالاستفتاء على الرياسة القادمة للرئيس حسني مبارك، وسوف يختاره الشعب؛ لأخلاقه وصدقه وجهوده المضنية من أجل الاستقرار الاقتصادي والأمني والسياسي؛ ومن أجل استمرار الحرية لكل الناس قولًا وعملًا، وسوف يختاره الناس؛ لأنه رجل أمين عف اللسان، متسامح؛ ولأننا جربناه نائبًا للرئيس ثم رئيسًا للجمهورية.

ولكن يجب ألا ننسى ما نادينا به قبل المعركة الانتخابية وأثناءها وبعدها بقليل.. فمشاكل مصر كما هي، وقد زادت قليلًا بسبب الأموال الكثيرة التي امتلأت بها الجيوب أثناء الانتخابات وأدت إلى ارتفاع سعر الدولار والسلع - إلى نوع من الرواج الكاذب - بسبب الفلوس الكثيرة والمخدرات الأكثر.

والمثل يقول: ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.. أو اليوم خمر وغدًا أمر.. ونحن جميعًا نعرف ما الذي ينقصنا، ينقصنا أن نكون جادّين فيما قلنا وما دعونا.. فإذا أحسسنا بالجدية، فالمطلوب أن نعمل، وإذا قررنا أن نعمل فمن حقنا أن نتساءل: ما الذي نعمله؟ والجواب: يجب أن تستثمر كل أموال وقوى مصر وخمس أو ست وزارات للزراعة، كلها من أجل استصلاح أرض مصر. فمصر ليست «عزبة» أيِّ أحد من الوزراء، لا أبوه الخديو إسماعيل، ولا جدّه السلطان قلاوون.. إن أي وزير موظف عند الشعب، وعليه أن يفتح الأبواب؛ ليخدم الشعب نفسه.. وما لم تتغير سياسة التعمير والبناء، واستصلاح الأراضي وزراعتها، والنظرة إلى المواطن الشاب على أنه لص، جاء يمشي على أطراف أصابعه؛ ليسرق الأرض من تحت أقدامنا، فلا أمل ولا معنى لكل ما يقال وسوف يقال من إصلاح مسار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية في مصر.

☆ ☆ ☆

قبل الأوان

كنت قد كتبت عن الذي يلقاه الوزراء وكبار المسئولين من عناء يومي، يزحف بهم إلى الشيخوخة في أقصر وقت. وطلبت أن نستعرض صور الوزراء يوم حلفوا اليمين، وبعدها بشهور.. الفارق كبير، لا في زيادة الشعر الأبيض ولا التجاعيد حول العينين ولا الشحوب، ولكن كثرة العقاقير في الجيوب.والسبب هو «مركزية» الإدارة المصرية، والرجوع إلى الرجل المسئول الواحد في كل موقع، لا لأنه عبقري، ولكن لأنه يريد أن يرى كل شيء بنفسه..

خطأ! ولأن الذين دونه لا يريدون أن يتحملوا مسئولية القرار، أتفه قرار.

قال لي صديقي عادل طاهر وزير السياحة الأسبق: إنه كان الوزير الوحيد الذي له إجازة تصور لا الوزير ولا رئيس الوزراء عنده إجازة سنوية يصيد فيها السمك أو يركب الخيل، أو يتمدد على الرمل ككل خلق الله.

السادات كانت رياضته المشي، ومبارك رياضته الأسكواش.

وقال عادل طاهر: إن زملاءه في النادي كانوا يتراهنون على أنهم لن يروه بعد أن أصبح وزيرًا، فخسروا جميعًا الرهان وكسب هو صحته!

وفي قلب المعارك الحربية تجد الجنود يلعبون كرة القدم والسباحة وركوب الخيل - لأنه من الضروري أن يستريحوا؛ ليكونوا أقدر على القتال.

ومما يذكره عادل طاهر أن وفد المفاوضات الإنجليزي للجلاء عن مصر كان يجيء في الصباح بعد أن يلعب التنس، ويستأنف المفاوضة بعد الظهر بعد لعب الجولف - كانوا في غاية اللياقة البدنية والعقلية بينما الوفد المصري، طويل اللحية شاحب الوجه، يقول:

وليس غريبًا أن نرى رؤساء الدول - أمريكا مثلًا - يعلنون عن إجازتهم السنوية، وكذلك رؤساء وزراء العالم، إدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا وأحد قادة الأوركسترا كان رئيسًا لفريق اليخوت القومي، وهو رئيس للوزراء..

وفشل الفريق في إحدى المباريات الدولية، ولم يؤدِّ ذلك إلى طرده من الوزارة - إنها رياضة.

إنها الراحة الضرورية.. والشعوب الأوروبية والأمريكية تفرض على رؤسائها الراحة بالقوة حتى لا يسيئوا إدارة شئونها ومصيرها!

☆ ☆ ☆

يفطر على بصلة

تلقى الرئيس السادات عشرات اللوحات لأطفال إسرائيل، وهم يتخيلون السلام بين البلدين. إحدى اللوحات: حقول للقمح بارزة السنابل على حدود مصر وإسرائيل.. ولوحة تجعل بين البلدين بحرًا يباعد بينهما؛ حتي لا تكون حرب.. ولكن خيال الطفل عاد فجعل ماء البحر أخضر.. كأنه يريد أن يقول: إنه بحر من الأعشاب والنباتات، أو هو بحر ضحل نعبره سيرًا على الأقدام.. ولوحة لحقل من الألغام، ومن كل لغم خرجت سنبلة وزهرة.. فالطفل يريد أن يقول: فلنزرع السلاح في أرض السلام، وسوف يزهر ويثمر.. ولوحة لمجموعة من الأطفال تركب الدبابات وفي أيديها أغصان الزيتون!!

أما اللوحة التي أضحكت الرئيس السادات حتى دمعت عيناه، فعندما وجدت طفلة الحل السعيد للبلدين: زفاف السادات إلى جولدا مائير!

فقد تخيلت الطفلة أن التعايش والتزاوج بين المسلمين واليهود هو الحل «وقد تزوج الرسول عليه السلام السيدة صفية وهي يهودية، وأقام لها وليمة متواضعة من التمر، فلم يكن بها لحم ولا شحم - كما ذكر ابن هشام».

ولا شيء من هذه الخيالات كان من الممكن أن يتحقق قبل الخطوة الشجاعة الحكيمة للرئيس السادات من القاهرة إلى القدس منذ عشر سنوات، فقد كانت خطوة قصيرة لزعيم مصري، ولكنها خطوة كبيرة لكل العرب - لو أرادوا.. وفي خطوة واحدة تهاوت قلاع كثيرة للشك وسوء الظن، وذاب الجليد بين الدولتين والشعبين. فجاء إلى مصر عشرات الألوف من سياح إسرائيل، وذهب عشرات من المصريين.. وارتفع علمنا هناك، وعلمهم هنا، وجاء خبراء وذهبوا واستعدنا سيناء، بالتفاوض أي بالسلام، ولن يكون السلام شاملًا بغير حل لمشكلة الشعب الفلسطيني، ولا حل إلا بالتفاوض.

وفي الذكرى العاشرة لمبادرة السادات بالسلام، ونتيجة للسياسة الهادئة الحكيمة للرئيس حسني مبارك، أعادت الدول الشقيقة علاقتها بمصر.. فقد كان قرارها باستئناف العلاقات، مثل قرارات الحرب والسلام، سياديًّا، أي من حق كل دولة أن تتخذ ما تراه مناسبًا لها.. ومهما اختلفت القرارات اليوم أو غدًا، فالإخوة يتساندون في الحرب، يتعانقون في السلام!

☆ ☆ ☆

لجنة تقصي الحقائق

شيء غريب حقًّا ألا يبعث مجلسا الشعب والشورى لجنة واحدة لتقصي الحقائق في أي بلد عربي.

سوريا.. لبنان.. ليبيا.. تشاد.. تونس.. أو حتى إيران، لجنة تذهب وتلتقي وتسمع وتنقل إلينا معلومات من الدرجة الأولى يستفيد منها صانع القرار.

لم يحدث مرة واحدة - ولا أعرف إن كان ذلك ضد لوائح المجلسين أو من اختصاص أحدهما فقط - أن تحاول بشكل غير مباشر أن تذيب الجليد أو تبدد الغيوم في العلاقات التي ساءت مؤقتًا..

وما دامت مؤقتة، فمن الواجب أن نقصر عمر هذه القطيعة.. فليكن هناك اختلاف طبيعي، ولكن لابد أن نعرف بأنفسنا، لا بغيرنا من وكالات الأنباء.

ولا تزال المعارضة في مصر هي التي تنفرد بالسفر إلي سوريا وليبيا والجزائر وغيرها من البلاد الشقيقة، ومن يقرأ الصحف العالمية يجد أن لجان تقصي الحقائق البرلمانية الأمريكية والفرنسية والبريطانية، ذهاب وإياب، بين القارات الخمس، إنه عُرف برلماني، وضرورة إعلامية، ولا يستغني عنها صاحب القرار.. فتكون هذه اللجنة ولجان أخرى أحد مصادر المعلومات الدقيقة.

ومن المعروف لدينا أننا ندعو وزير الخارجية من حين إلى حين؛ لكي يدلي إلينا برأي أو معلومات، أو يصحح ما لدينا من أخبار إذاعية أو صحفية أجنبية لا تفي بما نريد أن نعرف.. فوكالات الأنباء لها وجهات نظر، ولنا أيضًا، وكثيرًا ما كانت الدول على استعداد للتفاهم أو لحل العقد؛ إذا تم اتصال بينها.. والاتصالات الشعبية هي الأنسب في هذه الظروف الشديدة الحساسية..

مثلًا: مشاكل المصريين في الخارج نناقشها من هنا من القاهرة، لم تذهب لجنة من أي المجلسين لمناقشة المصريين في مواقعهم والعودة إلى تنويرنا. أبدًا. وإنما نحن نترك المشاكل تتعقد ويستعصى حلها، حتى يجيء المصريون في رحلتهم السنوية إلى مصر.. ويقولون ونقول مع الأحضان والقبلات: شرفتم بلادكم.. مع ألف سلامة، وألف وألف مشكلة.. ويا دار ما دخلك شر ولا خرج منك أيضًا!

☆ ☆ ☆

احتفظ بصورته

عند كل تغيير وزاري ألفت نظر القرّاء إلى أن يحتفظوا بصورة الوزير وهو يحلف اليمين، وأن يخرجوا هذه الصورة بعد سنة واحدة. سوف نجد الفارق عشر سنوات أضيفت إلى عمر الوزير! أين ذهبت الابتسامة؟! وكيف ظهر الشعر الأبيض والتجاعيد والقرف من الناس ومن الصحف؟...

وإذا جعلت أذنك على فمه؛ فسوف تسمعه يطلب من الله: أن ينهيها على خير، فيقوم من كرسيه ويمشي علي رجليه إلى بيته وأولاده.

ولكن لو رأيت الوزراء ونواب رؤساء الوزراء الآن؛ فقد أصبح كل واحد منهم مختلفًا، انظر إلى لون البشرة، إلى الورم حول العينين، إلى الجفاف في الشفتين، إلى العقاقير على المكتب.

لقد زرت أخيرًا أحد نواب رئيس الوزراء، وهو رجل في غاية الكفاءة والإخلاص، ولكن الرجل غير الرجل، والوجه والصورة والعينين والتساند على مقعده قائمًا وجالسًا.

إن الحكم عندنا في مصر «مركزي» - إنه كما يقول الأوروبيون: استعراض الرجل الواحد.. أي استعراض مسرحي غنائي راقص يقوم به شخص واحد.. فهو مؤلف الكلمات والألحان ومصمم الرقصات.. وشريهان أيضًا!

ولذلك يعيش طويلًا كل الذين يعملون مع الوزير، ويأخذون من عمره وصحته ونومه ويضيفونه إلي أنفسهم.. سألت نائب رئيس الوزراء، وأنا أعرف الجواب مقدمًا: ما لك؟ قال: لم أنم منذ أسبوع. قلت: لماذا؟ فقال ما أعرفه من الإرهاق والسهر وأعباء الحكم، فهو لا يحمل على رأسه وزارة وموظفيها وحسب، ولكن الشعب كله والشعوب العربية والأمريكية والسوفيتية، وهي صفات كنا نقرأ عنها فى أساطير الإغريق: فنجد الإله أطلس يحمل الكرة الأرضية على رأسه، وإذا حدث زلزال؛ فإنه ينقل الأرض من كتفه هذه إلى كتفه تلك.. وإذا حدث طوفان فلأنه الإله يبكي ويندب حظه - وتلك صفات يستمتع بها آلهة الإغريق.

أما أنصاف آلهة العصر الحديث من الوزراء، فإنهم يسقطون تحت الكرسي دون بكاء عليهم من أحد، فهذه شروط لعبة الحكم: مهما قدمت لبلدك، ومهما نزفت دمًا وتشققت أرقًا وغرقت عرقًا، فلا سلام لك ولا رحمة عليك!

☆ ☆ ☆

حياة غير صحيحة

الزواج قلعة كبيرة: الذي خارجها يريد أن يدخلها، والذي داخلها يريد أن يهرب منها - وكذلك الوزارة في مصر.. صدقني.

وعندما جاء د. علي لطفي رئيسًا للوزراء، كتبت في هذا المكان عددًا من المقالات أحدثه عن هموم الحكم، وعن الذي سوف يلقاه، وعن الذي ينساه، والذي سوف لا ننساه من وعود تقليدية.. ولم أكن أقصد د. علي لطفي شخصيًّا؛ ولذلك أسيء فهم هذه التحذيرات، على كل المستويات، ولكنني أؤكد اليوم أن ما قلته من شهور لا يزال صحيحًا.

فحياتنا الاجتماعية غير صحيحة، وحياتنا العملية أيضًا، فنحن لا نعرف الراحة المنتظمة - أي العمل المنتظم والراحة بعد ذلك، فلا يجرؤ أي وزير أن يجري في شوارع القاهرة طلبًا للياقة البدنية، ولا يجرؤ على السباحة في النوادي، ولا أن تنشر الصحف صورته وهو يلعب التنس والبلياردو.. كان ذلك عيبًا، كأن الوزير فرعون مصر؛ ولذلك يجب أن تكون للفرعون هذه القداسة السامية بعيدًا عن عيون الناس - أو بعيدًا عن الاقتراب من الناس، أو اقتراب الناس منه.

وقد نشرنا صورة الرئيس ترومان يعزف البيانون الذي جلست عليه الممثلة لورين باكال، وقد نشرنا هذه الصورة لسبب آخر: لكي تظهر الساقان الجميلتان، ونسينا المعنى.

وصور رئيس وزراء بريطانيا إدوارد هيث يقود فريق اليخوت القومي، الذي خسر السباق فلم يخرج من الوزارة لهذا السبب، وصورته يقود الفرق الموسيقية في الحفلات والكنائس! وصور الرئيس ماوتسي تونج يسبح في الماء.

ومرة واحدة رأينا صورة للرئيس عبد الناصر يلعب الشطرنج، ولم يكن الغرض من هذه الصورة إظهار الرئيس رياضيًّا، وإنما أنه قوي جدًّا، فالناس ليسوا إلا قطع شطرنج - والشطرنج هو لعبة تنتهي عادة بموت الملك..

وصورة واحدة للرئيس السادات يتمشّى.. وصورة واحدة للرئيس مبارك يلعب الأسكواش.

والرئيس الذي لا يتريّض يكون عصبيًّا. والشعوب يجب أن تُكِّره رؤساءها وقادتها وصانعي قرارها على اللعب والراحة بعد ذلك؛ ليكونوا أحكم وأقدر على إدارة شئونها، ولكننا نخجل من الذي لا يبعث على الخجل، ولا نخجل مما يبعث على اليأس!

☆ ☆ ☆

الجوع كافر

الجوع كافر والغضب أيضًا.. وفي السودان تعانق الاثنان معًا، فكيف يكون الجائع الغضبان متزنًا؟ وكيف يدري ما يقول وما يفعل؟

ونحن لم نعرف الجوع الجماعي في بلادنا - ليس أحد من الأحياء - وإن كنا قد قرأنا عنه في الكتب، أما الغضب فنعرفه في حياتنا الفردية، وفي سخطنا القومي ثورة بعد ثورة وعرفنا ما الذي نثور عليه، وعرفنا من الذي أفسد ماذا؟ وما الذي جنى ومن الذي تَجنَّى؟ ثم أشعلنا النيران، وعلى ضوئها رأينا أعداءنا وأصدقاءنا.

وعرفنا ما الذي تأكله النار، إن النار المقدسة مثل النار المكدسة «تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله» - قالها شاعر قديم، ولا يزال المعنى جديدًا.. حدث في مصر وفي السودان وسوف يحدث في بلاد كثيرة.

والسودان الشقيق لنا، يحملنا الكثير.. بل أكثر مما نطيق.. فما من مصيبة أصابت السودان، إلا رآنا وراءه.. منتهى الظلم لنا وللعلاقة الباقية بين البلدين، العلاقة التي هي أطول عمرًا من الحكام المخلصين والمزايدين -والمزايدون في السودان أكثر.

وما أكثر الذي قيل في السودان عن العلاقة بيننا.. لو وضعنا هذه الكلمات معًا، لكان من الصعب علينا أن نعرف من القائل.. وما الهدف.. وكيف يتصور أحد أن الاحتمال بلا حدود والصبر بلا نهاية له.

ولكن عذر السودان أن الأصوات فيه كثيرة.. والميكروفونات أكثر..

ولكن الجوع سوف ينحسر والغضب أيضًا.. وأنه.. سوف يأتي وقت تتقارب فيه الأصوات وتتحد فيه المنابر، ويتضح فيه الطريق ويطوي السودان دفاتره عن محاسبة أبنائه - نحن فعلنا ذلك كثيرًا. وإذا لم يسرع السودان وينهي هذه الفترة الحزينة من حياته الشاقة، فسوف تستفحل مشاكل الأمن: الأمن في الشمال وفي الجنوب والأمن الغذائي في كل مكان.

ونحن - كما هم - بشر.. بل الأنبياء الذين هم بشر فوق البشر، يغضبون أيضًا.. واحد منهم دعا على قومه فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارا».. إنه نبي، ولكنه ولكننا ولكنهم بشر!

☆ ☆ ☆

عاقل! كيف؟

ليس من العقل أن نطلب من الغاضب الساخط الثائر أن يكون عاقلًا، ولا من الحكمة أن تقول للذي ليست له أرض ولا وطن أن يستقر في مجلسه أو موقفه.

فالفلسطيني من المستحيل ألا يغضب وألا تغلي الدماء في عروقه وألا يسخط علي كل الذين لهم أرض ولهم وطن، ولأوطانهم حدود ولبيوتهم أبواب، فإذا رأى أحد هؤلاء الفلسطينيين؛ تحولت عيناه إلى أصابع تفتش في ملابسه عن السلاح، فكيف إذا جردناه من السلاح؟ ألا يكون لسانه سيفًا وأصابعه خناجر وصلواته لعنات على العالم - وعلى العرب قبل كل الناس.

فإذا طاشت له قنبلة وانفجرت عبوة ناسفة وتمزقت فتاة شهيدة بسيارة ملغومة، فمن الصعب أن تكون أنت قاضيًا عادلًا، بل من المستحيل أن تكون قاضيًا، وأنت طرف في هذه القضية والقاعدة القانونية تقول: إن القاضي لا يحكم بعلم، أي لا يحكم وهو يعلم، وهو يحلم، وهو أحد جنود الدفاع عن القضية الفلسطينية، ولكن - مليون ولكن - سوف نخسر كل شيء إذا مضينا ندافع عن الحق الشرعي بأسلوب غير شرعي، وإذا الغاضبون الفلسطينيون يقتلون الأبرياء وهم لا يقصدون إلا الغزاة المحتلين للأرض العربية، وإذا هدموا بيتًا في روما وقصرًا في باريس وزورقًا في قبرص، حتى هذا الذي أقوله، لن يكون مقبولًا.. أعرف ذلك ولكن ما هي الحيلة؟ إذا كان العرب ضعاف الحيلة تفرقت كلمتهم وتمزقت وحدتهم ورفضوا قضيتهم.

وقبل كل شيء أنكروا المحكمة والمحامي الذي يترافع عنها وعنهم، بل ولم يعطوا حتى الآن لهذا المحامي توكيلًا بذلك!

☆ ☆ ☆

النصر لغيرنا

عندما كانت نكسة مصر في 5 يونيو 1967، قالوا: بل هزيمة لكل العرب..

وعندما كان النصر في يوم 6 أكتوبر سنة 1973 قالوا: بل نصر لكل العرب.. وعندما عادت لنا أرضنا إلا «طابا»، قالوا: هزيمة لكل العرب..

إذن هناك خلاف شديد على معنى الهزيمة والنصر.

وفي أعقاب سنة 1967، كانت لي عبارة مشهورة وهي: إذا انتصرنا فنحن عرب، وإذا انهزمنا فنحن مصريون!

ولا يكون النصر عربيًّا، إلا إذا كانت الهزيمة مصرية، فلماذا؟

أما نحن فنعرف لماذا؟ فنحن قد انهزمنا في سنة 1967، وعندنا أدلة مقنعة على ذلك، وقد استفدنا من الذي أصابنا، ونجحنا في ألا تتكرر الهزيمة حين واجهنا إسرائيل بقواتنا المنظمة التي ليست مثل قوة إسرائيل وحليفتها أمريكا، واستطعنا أن نحطم حصون إسرائيل وأن نردها إلى الوراء.

ومع النصر كسبنا احترام كل الناس، فليس صحيحًا ما قيل من أن مصر جثة هامدة، وأن كل الذي يجب أن نفعله هو أن نعزِّي أنفسنا في وفاة عزيز علينا.

فكيف يكون النصر هزيمة؟ إنه هزيمة لبعض التوقعات العربية الشقيقة، توقعات الذين انتظروا لنا الهزيمة.

وإذا كنا قد انهزمنا عندما انتصرنا، وانتصروا عندما انهزمنا، فبالله عليك أية لغة هذه التي نتحدثها من المحيط إلى الخليج؟

ولماذا لا يوجد في قاموسنا إلا الهزيمة، وفي قاموسهم إلا النصر! وبالله عليك ما الذي نحرص عليه، وما الذي يحرصون عليه؟!

طبعًا: النصر ولكن نصر من على من، ضد من؟ وما دامت الحرب مع إسرائيل ليس فيها نصر ولا هزيمة؛ فلتكن إذن حروب بين العرب والعرب.. أو بين المسلمين في لبنان وإيران والعراق وليبيا وتونس وتشاد والمغرب.. فمن يا ترى الذي انتصر والذي انكسر في هذه المعادلة الدموية؟

ومع ذلك نتحدث عن العروبة التي تجمع بيننا في الدين والتاريخ والمصير واللغة وأكثر من ذلك نحرص على عروبة النصر ومصرية الهزيمة، لماذا؟

لم أجد لذلك جوابًا منذ بدأت أقرأ التاريخ الحديث للصراع العربي الإسرائيلي!

☆ ☆ ☆

لا يصدقه أحد

الحاكم المصري مسكين، لم يعد أحد يصدق قرارًا يتخذه، مهما كان حسن النية.

فسوف تصدر قرارات كثيرة؛ لإصلاح ما أفسد الدهر - والذي أفسده الدهر كثير جدًّا، على كل المستويات، مثلًا: في مواجهة الديون الهائلة لمصر، لا بد من رفع الدعم تدريجيًّا عن كل السلع الضرورية، لا مفر من ذلك.. كل دول العالم الثالث يجب أن تتخذ هذه الخطوة، وإلا تضاعفت ديونها، فلا تجد بنكًا أو دولة تقرضها وتعينها على مواجهة الفوضى والهيصة في موازينها التجارية.. لا بد!.

ولكن قبل إصدار هذه القرارات الضرورية، يجب أن نقتنع تمامًا بأن الوضع الاقتصادي في مصر مختل، ولابد من تعديله، وأن التعديل سوف يكون بالضبط والربط، ومثل هذه القرارات لن تكون لها شعبية، فالدواء والمدرسة عند الطفل ليست لهما شعبية، والحكام هم آباء الشعوب.

وقد دللنا شعبنا، ويجب تقويم هذا الاعوجاج. لا بد!

فالدولة يجب ألا تعتذر عن قرار واحد أصدرته.. يجب ألا تفعل ذلك، ولكن يجب أن تشرح القرار وأن تمهد لصدوره، وأن تقنع الناس به، فلا تجيء القرارات الصحيحة السليمة، كأنها قضاء وقدر، فتكون مثل الضرب بالسياط أو بالشلوت!

وإذ أقفلنا الباب في وجه الكماليات والسلع الأجنبية، فسوف يصرخ التجار.

وسوف يصرخ الناس. لا يهم لقد اتفقنا على أننا نريد إنقاذ الاقتصاد المصري، فإذا ألغينا استيراد عشرين نوعًا من الجبنة الفرنسية والسويسرية؛ لاستطعنا أن نبني ألف مدرسة ومائة مستشفى وهي أكثر ضرورة وحيوية لمصر، وإذا نحن لم نأكل الجوز واللوز والبندق وقمر الدين عامًا واحدًا؛ لاستطعنا أن نبني مئات المجمعات السكنية - وكل ذلك من أجل تعديل المسار الخاطئ للاقتصاد والحياة الاجتماعية في مصر!

فليكن أي قرار بعد شرحه للناس وإقناعهم به، فنحن نثق في سياسة الدولة وفي أمانة ونزاهة القيادة، ونفهم تمامًا مهازل الوضع الاقتصادي الذي ينهار ومعه مصر!

☆ ☆ ☆

ما الذي يشغلنا؟

منذ أيام جلست مع ضيف أجنبي كبير، يريد أن يعرف ما الذي يشغل بال المصريين، ومما قاله أحد المصريين: إن مصر تبحث لها عن بطاقة هوية.

ومعنى الذي يقوله هو أن مصر لا تعرف إن كانت مصرية أو عربية أو فرعونية.. أو أوروبية أو إفريقية آسيوية.. إسلامية أو علمانية.

وأدهشني ذلك حقًّا، وتحيرت إن كان الذي يقول ذلك أحدًا من المصريين، أو هو أحد من المستشرقين، وتأكدت أنه مصري، وأحسست أنه صوت جاء منذ أيام الدولة العثمانية، أو الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني، ففي ذلك الوقت: كان المصريون يتغنون بكلمة «مصر»، فقد افتقدوها.. وعلى أيام الرئيس عبد الناصر حذفت كلمتا مصر وسوريا - وأخفيتا في كلمة هلامية اسمها «الجمهورية العربية المتحدة».

وكان السوريون أشجع منا عندما قالوا: إن الرئيس عبد الناصر قد جعل سوريا «إقليمًا» شماليًّا، ومصر «إقليمًا» جنوبيًّا.. وإذا كان المصريون قد ارتضوا ذلك؛ فلأن عبد الناصر قد أضاف إليهم سوريا..

فهو أخفى القليل من الكثير.

ولكن كانت مصر وسوف تبقى عربية.. وأنها أفروآسيوية وأنها شرق أوسطية وبحر أبيضية وأنها تقع في جنوب أوروبا بثقافتها وأجهزتها الحديثة وطموحها أيضًا.

صحيح أننا وقعنا صلحًا مع إسرائيل، وهو من أعظم إنجازات مصر السياسية بعد إنجازها العسكري في حرب أكتوبر.

ولكن لا تزال المسافة بين القاهرة والرياض، وبينها وبين عدن والرباط ومقديشيو أقرب من المسافة بين القاهرة وتل أبيب - اليوم وغدًا، فالذي بين مصر والعرب هو كل الماضي بويلاته وخيراته - وإن كانت الخيرات أكثر..

والذي بين مصر وإسرائيل هو الماضي الحزين، والأمل الضعيف الذي نرجو أن يكون أقوى وأوسع، فلا أحد في إسرائيل يريد الدمار ولا أحد في العالم العربي أيضًا.

☆ ☆ ☆

لم يتفقوا

لا يهم الاسم الذي يعطيه المؤرخون لخروج القوات الفلسطينية من لبنان: دنكرك، أو ووترلو، أو العلمين، أو الخروج الثاني الذي لا ثالث له.. ولكن القوات الفلسطينية حاربت واستشهد منها الألوف، وأخطر من ذلك أن العالم كله وقف ضد السيد عرفات: الأمريكان والروس والفرنسيون وإسرائيل وسوريا ولبنان وبعض الفلسطينيين.. والصمت العربي! ولا يستطيع السيد عرفات أن يبقى وحده يحارب من أجل وطنه، وبعض أبناء وطنه ينصرفون عنه.. والبقية الباقية تريد تجريم ياسر عرفات واتهامه بالخيانة العظمى؛ لأنه جاء إلى مصر التي كان قد هاجمها بعنف وطبل وزمر فرحًا باستشهاد السادات بطلها في الحرب، وفي السلام الذي يريده ونريده له، ولا يهم أيضًا هذا الموقف من السيد عرفات، فقد حدث، وسوف يحدث كثيرًا، فقد اعتادت مصر على ذلك، حتى ضاقت أحيانًا بالعروبة وبالقضية الفلسطينية.

أما الذي يهم الآن فهو: ما الذي سوف يفعله السيد عرفات؟ وما الذي سوف يقرره العرب؟

ألم يتفق العرب بعد كل الذي حدث - على موقف واحد.. على صيغة واحدة.. على رأي واحد في ياسر عرفات، وقضية ياسر عرفات؟! إن كان قراره الشخصي بزيارة مصر خيانة عظمى، فنحن على استعداد لأن نتحمل عنه هذه الخطيئة، فنعلن أننا نحن الذين قبلنا قدميه ويديه من أجل أن تتشرف الكنانة بهذه الزيارة - إذن فهو بريء من عار الزيارة المصرية التي جاءت مع احتفالنا بعيد النصر في بورسعيد.

والآن، وقد أصبح بريئًا، فما هي الخطوة التالية.. من أجل التفكير والنظر والتأمل في استئناف المناقشة وإمكانية الجلوس مع الملك حسين بشأن الإعداد المبدئي للحوار مع أطراف متعددة من بينها إسرائيل في بناء المستوطنات بالضفة الغربية؟ وهل هذا مشروع؟.. إلخ - فإن كل العرب يفكرون على هذا النحو مرة أخرى، فلا سلام، لأن العرب لا يزالون هازلين مهرجين هجاصين!

☆ ☆ ☆

تشرشل فشار

في أثناء الحرب العالمية الثانية كان بعض المتشككين يحسبون الطائرات التي أسقطها الحلفاء للألمان، وكنا لا نصدق الحلفاء؛ كراهية للإنجليز الذين يحتلون بلادنا، وبعد ذلك رأينا في أكاذيب الحلفاء ضرورة عسكرية - أي ضرورة لرفع الروح المعنوية عند الشعب البريطاني والشعوب المعادية لنازية هتلر وفاشية موسوليني.

ولم نعرف إلا بعد نهاية الحرب أن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا كان أكبر «فشَّار» في التاريخ، فعندما هاجم اليابانيون سنغافورة، أعلن أننا سوف نقاتل الوحوش اليابانية حتى آخر جندي!

واستعد اليابانيون برًّا وبحرًا وجوًّا ولم يجدوا إلا جنديًّا واحدًا في أحد المخابئ!! لقد كان الهدف هو رفع الروح القتالية لدى العسكريين، وإنعاش روح المقاومة عند المدنيين؛ حتى لا يفقد أبناء الديمقراطية أملهم في الحياة الأفضل ضد الديكتاتورية، أعدى أعداء الإنسانية!

ولكن في سنوات السلام ومداواة الجروح وبناء الذي انهدم وجمع الشمل، ما هو الهدف الذي يقصده أي مسئول كبير عندما يطلع علينا بأرقام الإنجازات في كل شيء؟ الهدف واحد أن يطمئن الناس على مستقبلهم، ولكن في زمن الحرب لا يستطيع أحد أن يراجع أحدًا، ولا أن يحاوره، أما في أيام ما بعد الحرب، ففي استطاعة أي إنسان أن يفعل ذلك.. ثم إن الحاسبات الإلكترونية في جيب كل منا، وأنا أكره الأرقام؛ لأنني أجهلها، وكنت أول الأمر أتابع الأرقام بالعد على أصابعي.

وأنتهز هذه الفرصة لأجدد احترامي لذلك الرجل القصير «الفشَّار»، الذي كان يضع في فمه سيجارًا ضخمًا، رافعًا ذراعه بعلامة النصر، ولم يكن منتصرًا.. تشرشل!

☆ ☆ ☆

حلمنا الجميل

صدمتني عبارة للقائد الألماني فون مولتكه.. يقول: السلام حلم جميل، ولكن الحرب أرادها الله نظامًا للحياة؛ لأنها تكشف عن فضائل الرجال: الشجاعة والتضحية والانضباط.

طبعًا هذه العبارة لا تجيء إلا من جندي محترف، لم يعانق إلا البندقية، ولم ينم إلا على صوت المدافع، ولم يسعد إلا بصيحات القتلى، ولم تمتلئ عيناه إلا بالدماء والدخان!

ولكن من قال إن السلام حلم، إنه ممكن وقد أمكن، ولكن السلام ليس وقف القتال، وانعدام فضائل الشجاعة والتضحية والانضباط، فالسلام أيضًا حرب، ولكن بأسلحة أخرى، بالفأس والمطرقة والمشرط والمسطرة.. وتظهر كل فضائل الرجال: الشجاعة والصدق والانضباط والتضحية أيضًا!

وجيوش السلام هي: العمال والفلاحون والعلماء والأطباء والمدرسون والطلبة والمصلحون.

والذي هدمته وخربته الحروب يجب أن نبنيه وأن نرفعه وأن نعلي من قدره - ماديًّا ونفسيًّا. فإذا كانت السياسة هي الحرب، ولكن بأسلحة أخرى، أو أن الحرب هي السياسة، ولكن بأسلحة أخرى، فالسلام أيضًا له كل صفات الحرب وإن لم يكن كذلك.. فلا بد من خطة، ومن تعبئة، ومن استعداد وتدريب.. ثم الزحف على الأرض البور والمدن المنهارة، ولابد من تربية الشعب علي العمل الهادئ والإنتاج والإبداع والحرص على الحياة والجمال والهدوء والتأمل والأسرة والأولاد، ولا بد أن نكره الموت وأن تختفي الحرب وأن نعيش في سلام من أجل السلام والمحبة بين الناس في الدولة الواحدة وبين الدول في العالم.

وكما أن السلام حلم جميل، فالحرب كابوس فظيع.. ولا نزال نقاوم الكوابيس؛ حتى يتحقق لنا السلام من حين إلى حين.. والسلام الطويل: أي سيطرة الخير على الشر، والبناء على الهدم وإنقاص عدد مثل هذا القائد فون مولتكه، أي عدد الوحوش بين البشر!

☆ ☆ ☆

المعلومات الصغيرة

كل قصص الجاسوسية تقوم على المعلومات.. جمع المعلومات من أي مصدر.. المعلومات الصغيرة والكبيرة والتافهة والهامة - وخصوصًا التافهة والتي تجيء من أناس لا يحسنون الضبط والربط.

ففي كل قصص الجاسوسية تجد أن المعلومة الصغيرة التي لا تلفت النظر، هي التي كشفت عن شبكة خطيرة؛ ولذلك كان تحليل المعلومات أو الأخبار وتصنيفها وربطها ببعضها البعض، هو أهم ما تقوم به العقول الجبارة وراء سيل المعلومات التي تتدفق من أركان الأرض.

فمثلًا انكشفت العلاقة العاطفية بين رجل المخابرات المصري في تل أبيب وموظفة دبلوماسية في السفارة البريطانية.. كيف؟

لم يلتفت أحد إلى العلاقة السرية بين رجل المخابرات المصري وصديقته البريطانية، ولكن كانت إسرائيل تلاحظ.. وترصد.. وتنتظر.. ولكن لا معلومات هامة من أي نوع.

وفجأة جاءت معلومة من البرازيل عن حفل عشاء أقامته إحدى السفارات هناك، عندما علق أحد الدبلوماسيين المصريين على شيء بعبارة.. عبارة عادية.. ولكن هذه العبارة جاءت مطابقة لعبارة جاءت من تل أبيب!

هنا تحركت العقول المدربة على التحليل في لندن، فقد حدث أن كان رجل المخابرات المصري في القاهرة يدلي بمعلومات لرؤسائه في المخابرات المصرية، في حضور رجل المخابرات المصري الآخر في البرازيل، ثم قال عبارة هي نفس العبارة التي قالتها موظفة السفارة البريطانية في تل أبيب.. وهنا تأكدت العلاقة بين المصري والبريطانية العاشقة، وكان لابد من سحب رجل المخابرات المصري وسحب البريطانية وفصلها ومحاكمتها.

أما البريطانية فحاكموها وعذبوها وسجنوها وأخفوها تمامًا.. ويقول البريطانيون: إنها لم تتدرب تدريبًا عاطفيًّا جيدًا، ويقول المصريون: إن رجالهم مدربون عاطفيًّا، ولكن يجب قطع ألسنتهم!

وقد تكررت أخيرًا نفس الحادثة بين مصر وجنوب إفريقيا.. وكانت بداية الخط فتاة عاشقة لرجل المخابرات المصري اسمها ليديافان هردن، طاردته حتى القاهرة والبداية كانت تعليقًا تافهًا جدًّا على زجاجة مياه معدنية وقعت، فقال رجل المخابرات المصري:

- خير.. خير، سوف تتلقين هدية فستانًا جديدًا وأنا الذي سأقدمه لك!

وجاءت عبارة مثلها من مكان آخر!

☆ ☆ ☆

الهجرة: حل!

تشرنوبل - هذا هو اسم المرض الذي أصاب «الاتحاد» السوفيتي.. تشرنوبل مفاعل ذري تحطم.. وترتب على ذلك أن الإشعاعات النووية انطلقت في كل الاتجاهات؛ فأصابت الإنسان والحيوان والنبات والأرض وسوف يبقى أثر هذه الإشعاعات مئات السنين.

أما الذي أصاب الإنسان فهو الإشعاعات التي «لخبطت» الكمبيوترات الموجودة في كل خلية في جسم الإنسان، فتحولت من خلية إنسان إلى خلية قرد وحمار معًا..

ولذلك فسوف تلد الأمهات - إذا ولدن - كائنات شاذة، والذي تفعله الخلايا المصابة بالذرة كالذي يفعله مرض السرطان هو جنون الخلايا أو فقدانها لذاكرتها، فهي لا تعرف ما الذي يجب أن تفعله في الجسم الإنساني أو الحيواني أو النباتي.

ونحن عن طريق الهندسة الوراثية نحاول أن نغير في مسار وتكوين الخلايا أو نضيف إلى عقولها الإلكترونية معلومات جديدة.. فنجعل الحيوانات أكبر أو أصغر أو لونها أصفر أو أسود.. والهندسة الوراثية هي إعادة تنظيم الخلايا.. بالعقل وليس بالجنون!

شيء من هذا أصاب روسيا «الاتحاد السوفيتي سابقًا»؛ لأن عددًا كبيرًا من العلماء والفنانين والمهندسين تركوا بلدهم.. هربًا من الجوع والفقر.. فلم يعد العلماء قادرين على أن يكونوا علماء.. لا عندهم فلوس ولا مصانع، أحد علماء الروس قال في مؤتمر صحفي: إن حضارتنا القادمة هي حضارة السجق! يقصد أنها حضارة العلماء الجائعين الذين يبحثون عن أي طعام!

وقد أعلن الموسيقار الروسي سميرنوف، أن العقل الروسي سوف يتوقف تمامًا، فلا عنده مادة للتفكير ولا عنده أمل.. فالهجرة هي الحل!

إن خلايا العقل الروسي أخذت في الضمور، عشرات الألوف من المواهب في نزيف مستمر إلى الخارج، فالحياة العلمية في روسيا تحتضر.

هل يمكن أن يعيش رئيس لجنة الطاقة الذرية الروسية بمرتب شهري قدره سبعون جنيهًا، إنهم في أمريكا يقدمون له فورًا عشرة آلاف دولار شهريًّا؟!

ومع ذلك؛ فروسيا تترنح ولكنها لن تسقط.. وخلايا المخ تتآكل هربًا، ولكن العقل قادر على الإبداع، وسوف تقف روسيا بعد جورباتشوف جبارة عملاقة في سنوات قليلة!

☆ ☆ ☆

ولكنه شيوعي!

هناك حكمة تقول: «يدبر المدبرون والقضاء يضحك».

والتاريخ يضحك، فقد جمع بين رئيسين سابقين في مدينة واحدة، وفي شارع واحد: جورباتشوف رئيس السوفيت السابق، وهونيكر رئيس ألمانيا الشيوعية السابق..

هونيكر وأسلافه هم الذين أقاموا حائط برلين.

وجورباتشوف هو الذي هدمه.. وهونيكر هو الذي أنشأ المخابرات الألمانية «أشتاسي» وجورباتشوف هو الذي حلها ومعها المخابرات السوفيتية..

هونيكر هو الذي أطلق الرصاص على مائتي ألماني شرقي حاولوا الهرب إلى ألمانيا الاتحادية ولذلك تطالب ألمانيا بمحاكمته..

وجورباتشوف هو الذي اعترض على إعادة هونيكر إلى ألمانيا، فهو شيوعي مخلص ولا توجد معاهدة تسليم مجرمين بين روسيا وألمانيا..

ثم إنه ليس مجرمًا وإنما هو لاجئ سياسي؛ لذلك لم تتقدم ألمانيا التي وحدَّها جورباتشوف باستضافته..

وهونيكر يعرف مصيره، وهو أن تطارده ألمانيا في أي مكان.

وجورباتشوف لا يعرف مستقبله، رغم أنه في صحة جيدة وأنه لم يسئ إلى بلاده وإنما فرض عليها العلاج بالقوة.. ولا يزال الأطباء هم أقل الناس شعبية عند الأطفال، والمصلحون أقل شعبية عند الشعوب.

وهونيكر قد نهب وسلب وانحرف، فقد وجدوا أفلامًا جنسية عارية للزنوج رجالًا ونساءً.. وكانت له صديقات من الغانيات والشقراوات..

ثم إنه نهب من أموال الشعب سبعين مليونًا حولها إلى البنوك السويسرية.

وجورباتشوف رجل قويم مستقيم محافظ وله أسرة متماسكة.. أما أمواله في سويسرا، فقد كسبها من ترجمة كتابه البورسترويكا.. ومن أجره عن ثلاثة أحاديث في التليفزيون العالمي..

وهونيكر مثل نوريجا وبوكاسا وعيدي أمين وستالين وبرجنيف وإيفان الرهيب.. وجورباتشوف ليس له نظير في بلاده ولا في أي بلاد أخرى..

وكان لابد أن يتركه الغرب يسقط فهو شيوعي يريد أن يتخفف من أعباء الاتحاد السوفيتي؛ ليقف «على حيله» عملاقًا أمام أمريكا؛ ولذلك تخلّى عنه بوش (الأب).. فمن المستحيل أن يساعد على ظهور ستالين آخر؛ مهما كان مظهره ناعمًا!

☆ ☆ ☆

..قتلوهم!

ودعت الرئيس جورباتشوف حزنًا عليه، ولم يكن ذلك مجرد تخمين، وإنما هي النهاية التقليدية لكل الذين يسبقون زمانهم، فمصيرهم أن يموتوا بأيديهم أو بأيدي الآخرين. وقد جاءت نهاية جورباتشوف!

ولكن لماذا؟ لأن أصحاب النظريات ليسوا دائمًا أقدر الناس على تطبيقها - فأنبياء بني إسرائيل أكبر دليل على ذلك.. قتلوهم بالعشرات!

وفي تاريخ الفلسفة السياسية يقدم أستاذنا أفلاطون دليلًا على ذلك فهو صاحب «الدولة المثالية» وكيف تكون، فأعطوه جزيرة من بابها، يطبق فيها فلسفته فكان أول الهاربين، فجاء ذلك تأكيدًا لهذه القاعدة: صاحب الرأي ليس دائمًا صاحب الرؤية.

وجورباتشوف قد أعطى الناس الحرية، جعلهم أحرارًا في الهجوم عليه دون خوف، والانقلاب ضده بتهمة أنه عقبة في سبيل تطبيق فلسفته هو؛ ولذلك كان لابد أن يذهب!

وأروع صورة لذلك ما جاء فى رواية «الإخوة كرامازوف» للأديب الروسي دستويفسكي، ففي يوم فوجئ الناس بالمسيح عليه السلام يمشي في الشارع، فتركوا الكنيسة وخرجوا مبهورين يمشون وراءه.. إنه المسيح!

وفوجئ الكاردينال في الكنيسة بأن الناس تركوه، فذهب غاضبًا إلى المسيح الذي وجده يمشي عاري الصدر حافيًا، بينما الكاردينال قد علق الذهب في عنقه، وارتدى ملابسه البيضاء الفاخرة، واقترب من المسيح يقول: لقد تعذبنا كثيرًا من أجل دينك، وأنت كنت تقول لنا: لن يدخل الجنة غني إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة.. وليكن معلومًا لديك أنه لولا الأغنياء ما انتشرت ديانتك ولا أقيمت الكنائس.. فما كنت تنادي به، لم يعد صالحًا الآن..

فإما أن تخرج وإما أن أضعك في السجن أو أصلبك من جديد!

وقد رفض الفيلسوف كروتشه أن يكون أول رئيس لإيطاليا، ورفض أينشتين أن يكون أول رئيس لإسرائيل، ولطفي السيد أن يكون رئيسًا لمصر، ولنفس السبب وهو أنه كصاحب رأي، ليس أنسب الناس لفرض هذا الرأي بالقوة والحيلة - أي بالسياسة، والسياسة هي فن السفالة الأنيقة. وجورباتشوف ليس سياسيًّا!

☆ ☆ ☆

اغتيال صدام

فشلت محاولة المخابرات الحربية الإسرائيلية في اغتيال الرئيس صدام حسين، وكانت قد أعدت وحدة عسكرية معروفة باسم «وحدة 269» وهي وحدة للاستطلاع وراء خطوط الأعداء. وكانت مهمة هذه الوحدة أثناء حرب الخليج أن ترصد الصواريخ «سكود» المتجهة إلى إسرائيل وتحذر منها، وكانت تعمل في الصحراء العراقية.

وتدربت هذه الوحدة العسكرية على إطلاق صاروخ يهتدي بحرارة جسم الرئيس صدام، وجاءتها المعلومات المؤكدة في يوم محدد في ساعة محددة بأن اغتياله مضمون تمامًا، وكانت الخطة أن تجيء طائرة هليكوبتر وتلتقط الوحدة العسكرية وتعود بها إلى إسرائيل.

ولكن حدث في يوم 5 نوفمبر صباحًا، عندما كانت هذه الوحدة تتدرب في صحراء النقب أمام عدد من كبار الضباط أن انفجر الصاروخ فقتل ثلاثة من هذه الوحدة، فقررت إسرائيل إلغاء محاولة الاغتيال، ولما انتشر الخبر في إسرائيل أطلقت المخابرات شائعات مضادة، فأعلنت أن وحدة عسكرية كانت في طريقها إلى لبنان؛ لاغتيال أحد قادة «حزب الله» تعرضت لحادث أليم، ثم إمعانًا في تغطية هذه الشائعة ألقت القبض على عدد من المراسلين الأجانب - كلهم من اليهود - وطردتهم من إسرائيل بتهمة إفشاء أسرار عسكرية!!

ويبدو أن إسرائيل استطاعت أن تخترق استحكامات الأمن حول الرئيس صدام، وهي استحكامات متينة وسرية، فالرئيس صدام ينتقل إلى أماكن كثيرة كل ليلة.

وكل من يلتقي به يضللونه ويعصبون عينيه.. وأهم من ذلك يفتشونه عاريًا، ثم يغسلون يديه خوفًا من أن يحمل مادة سامة تنفذ إلى جسم الرئيس.

ويبدو أن الرئيس صدام قد علم بهذه المؤامرة من الأمريكان؛ فأعدم ثلاثة من رجاله دون ذكر الأسباب، وهذه «الوحدة 269» كانت أثناء حرب الخليج تعمل للاستطلاع لحساب أمريكا أيضًا؟! وكان الرئيس صدام قد رفض طائرات هليكوبتر للأمم المتحدة؛ خوفًا من أن يتسلل بينها عميل إسرائيلي انتحاري يقوم باغتيال الرئيس صدام.

وهناك خطط أخرى لاغتيال الرئيس صدام من داخل العراق - من العراقيين ومن الأكراد ومن الإيرانيين - بتدريب بريطاني وإسرائيلي أيضًا!

☆ ☆ ☆

أغنية الرئيس

أعجبتني بساطة هذا الرجل المتحضر الرئيس بيل كلينتون، في عيد زفافه إلى الشعب الأمريكي والعالم غنى ورقص وعزف على الساكسوفون في عشر حفلات راقصة، وبناء على طلب وإلحاح الجماهير، وغنَّى لمعبوده ألفيس بريسلي، غنى وحده وغنى مع مايكل جاكسون، وكانت ابنته شلسي سعيدة، لا لأن والدها أصبح أقوى رجل في العالم، ولكن لأنها تقف وتمسك يد مايكل جاكسون، وكانت أمها تمسك الرق ترافق الرئيس في الغناء.

أما نائب الرئيس فكان يعزف على الجيتار.

وعندما قال الرئيس كلينتون وهو سعيد يرقص ويغني: اليوم خمر وغدًا أمر.. لم يكن يعرف أنه يقول أقدم عبارة قالها شاعر عربي - لعله امرؤ القيس - ومن 15 قرنًا!

وهو الذي طلب إلى الشاعرة الزنجية مايا أنجيلو أن تنظم له قصيدة في يوم التتويج، وهو الذي اقترح عليها أن تكون القصيدة في معنى اليوم الجديد والتغيير، وكانت القصيدة تحفة أدبية.. وألقتها الشاعرة بصوت الموسيقى..

وتحدثت عن التغيير والسلام والوحدة الوطنية وعن الأمل.

إن الأفق يتراجع ويتسع أمامكم من أجل هذا اليوم الجميل، لتكن عندكم الشجاعة، وانظروا إلى الصخرة والنهر والشجرة وهذا الوطن.

وتقول: هنا رجع نبض يوم جديد جميل، ارفعوا عيونكم وانظروا في عيون إخوانكم ووجوه أمهاتكم وإلى وطنكم، وقولوا معًا وفي بساطة، منتهى البساطة وبكل الأمل: يا صباح الخير!

وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة - كما يقول المثل، واختفى الرئيس كلينتون وراء الأبواب المغلقة، ومن حين إلى حين يخرج ليحيي الجماهير، التي تتفرج على البيت الأبيض، ويعود إلى همومه الجديدة والقديمة، ولن يجد وقتًا لمدة أربع سنوات قادمة ليقول لأحد أو يقول له أحد: يا صباح الخير!

☆ ☆ ☆

بوش الثاني!

الرئيس الأمريكي فورد هو الذي أصدر قرارًا بألا يشارك أي أمريكي في اغتيال رئيس لأي بلد، ولكن الرئيس بوش (الأب) استأذن وزارة العدل في القبض علي رئيس بنما نورييجا ومحاكمته؛ لأنه يهرب المخدرات إلى أمريكا، وقد ظل قرار الرئيس فورد ساريًا؛ ولذلك لم تحاول أمريكا القضاء على صدام حسين وإنما هي حريصة على أن يقوم العراقيون أنفسهم بذلك.

وسوف تؤيدهم إذا نجحوا، ولكن المعارضة العراقية ضعيفة جدًّا. وقد ادَّعت المعارضة العراقية أنها حاولت القيام بانقلاب ضد صدام حسين ولم تفلح، ولكن المخابرات العالمية ليس لديها ما يؤكد ذلك، فالرئيس صدام يمسك بلاده بقبضة متينة جدًّا، ويحسب عليها خطواتها وأنفاسها أيضًا، وكل من خرج علي الصف أو على النص، قضى عليه فورًا، حتى أقرب الأقربين.

وعندما حاول صدام أن يكون سيد الخليج بضرب السعودية والاستيلاء على الكويت كان لابد من عقابه، ولكن ليس القضاء عليه؛ لأنه يجب أن يبقى في وجه إيران، فأمريكا حريصة على أن يبقى صدام قويًّا لدرجة تهدد إيران، أما دول الخليج فلا خوف عليها مادامت أمريكا هناك، وسوف تبقى.

وعلى الرغم من التدخل الأمريكي في الخليج والصومال، فإن أمريكا لا تستطيع أن تشترك في حرب البوسنة والصرب؛ لتداخل المسلمين والمسيحيين وصعوبة الفصل بينهم، وأمريكا عندما تنظر إلى الصرب والبوسنة، تجد أن موقفها مشابه لموقفها في فيتنام وأشباح سبعين ألف قتيل أمريكي لا يمكن أن تبرح خيال الشعب الأمريكي وضمير النظام في البيت الأبيض، ولذلك خرجت القوات الأمريكية من الصومال، ولن تدخل البوسنة والهرسك من البحر أو من الجو.

وليس صحيحًا كل ما قيل من أن أمريكا، فكرت في أيام بوش الأب أن تغزو العراق وتحتل بغداد وتسقط صدام أو تلقي القبض عليه، فقد ساعدته أمريكا وروسيا واليابان وأوروبا، ثم كل الدول العربية على أن يتعملق هذا الجبار الطاغية، وأمريكا تريده قويًّا يخيف إيران ويهدد دول الخليج؛ ليكون لها الدور الحيوي النشيط في هذه المنطقة، ثم إن صدام أضعف الآن من أي حاكم يجيء بعده متعطشًا للدماء والانتقام!

ولكنها احتلت العراق في أيام بوش الابن..

☆ ☆ ☆

فوق القانون!

اضبط.. السيدة التي تحمل القانون وزوجها أستاذ القانون الدستوري بجامعة ييل، قد داست القانون ويجب أن تدفع غرامتين..

أما هذه السيدة فهي «زوِيه بيرد» التي عينها الرئيس كلينتون محاميًا عامًّا، وهي أيضًا لم تغير اسمها بالزواج مثل زوجة الرئيس الأمريكي، فقد اكتشفت أجهزة الأمن أنها تستخدم رجلًا وامرأة من بيرو.. المرأة دادا للأطفال والرجل سائق، دون أن تحصل على موافقة مصلحة الهجرة والجنسية على ذلك، هذه أول مخالفة وهذه الإدارة تتبعها شخصيًّا - والمخالفة الثانية أنها عندما استخدمت هذين المهاجرين لم تدفع لهما التأمينات الاجتماعية المطلوبة، أما الغرامتان فهما عشرة آلاف دولار - مع الاعتذار عن هذا السهو الذي لم تقصده سيادتها، ولم يتعمده الأستاذ الجامعي الكبير.

وبسرعة التقطت الصحف الأمريكية هذه الغلطة، وهاجمت السيدة وزوجها، وطلبت الصحف من الرئيس كلينتون أن يقول شيئًا، فقال الرئيس كلينتون بصورة حاسمة: إنه يثق كل الثقة بالسيدة زوِيه؛ لأنه يصدق كل كلمة قالتها هي وزوجها، وسكتت الصحف!

وكان آل جور نائب الرئيس كلينتون قد أعلن أنه لابد من محاكمة صدام حسين كمجرم حرب، ولابد أن تقام له محكمة مثل محكمة نوريبجا، ولما قيل له: ولكن ليس هذا رأي الرئيس قال: ولكنه رأيي قبل أن يختارني الرئيس نائبًا له.

وقيل له إنه لكي نحاكم صدام حسين؛ فلابد من إلقاء القبض عليه مثل الرئيس نوريبجا.. وليس هذا في نية كلينتون ولا كان في نية بوش (الأب). فكلاهما يريد أن يسقط الرجل بأيدي الشعب العراقي أو ألا يسقط مطلقًا ويبقى مصدر قلق للحلفاء، وتتقلب المنطقة على نار البترول والخلافات العرقية والدينية والقومية، وأن تتمزق قطعًا مثل الاتحاد السوفيتي ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، وتزداد كلها ضعفًا وتعطشًا للقتال، وشراء الأسلحة من الدول الكبرى التى تنادي بالسلام!

ولما سئل الرئيس كلينتون عن رأيه فيما قال نائبه؛ كان حاسمًا حين قال: إنه يثق فيه ثقة مطلقة وإن لم يكن هذا رأيه شخصيًّا.. وانقطع لسان الصحف فسكتت!

☆ ☆ ☆

أستاذ السفالة!

لا يزال الفيلسوف الإيطالي ميكافيللي هو أستاذ السفالة في إدارة الشعوب - أي في السياسة. وأكثر الشعوب سفالة هي حكومات الدول العظمي والكبرى، ولا ينظرون إلى حال الدنيا من الناحية الأخلاقية، فلا أخلاق ولا دين في السياسة وإنما مصالح في مصالح!

انظر إلى خريطة الشرق العربي، كل الدول في خلاف مع بعضها البعض.. العرب أشد خلافًا بينهم من خلافاتهم مع اليهود والفرس، فالذي فعله العراق في العراق، والذي فعله في أهل الكويت، لم تفعله إسرائيل مع جيرانها، ولا حتى مع الشعب الفلسطيني على أرضه وأرضها، وسوف يبقى الخلاف طويلًا.. وهذه مسألة قابلة للانفجار؛ ولذلك يجب أن يعجل العرب بحل مشاكل حدودهم؛ لأن مشاكل الحدود إذا تراكمت تحولت إلى عقد وإلى أزمات قومية.. مشكلة طابا التي انحلت ومشكلة حلايب التي لن تكون مشكلة بين الشقيقتين مصر والسودان.. وكذلك مسألة الحدود بين السعودية وجيرانها.. إنها أورام صغيرة تكبر من الداخل ومن الخارج، ولذلك يجب النظر إليها بسرعة ومرة واحدة.

وهناك مناطق سوف تبقى طويلًا مصدرًا للمتاعب والمساومات والأزمات، هناك لبنان واليمن والعراق.. وهي كلها مناطق مدخرة لمتاعب سوف تأتي بعد ذلك.. وسوف تبقى بورصة للمساومات القومية والمزايدات الوطنية والتوازنات الدولية.

ولو نظرنا إلى مشكلة الأكراد أو أزمة الأكراد التي صورتها الدول الأوروبية على أنها أزمة «أخلاقية» فسوف نكتشف أن الدول الأوروبية كاذبة في كل دعاواها.. فلم تصدق مرة واحدة مع الشعب الكردي.. وإنما اتهمت العراق وكل المسلمين بأنهم وحوش، ينظرون إلى الضحايا والجياع وكأنهم أمام فيلم تسجيلي قديم، ولم تكن أمريكا ولا أوروبا صادقة في موقفها من الأكراد. فليس في نية أحد أن يقيم دولة كردية مقتطعة من تركيا والعراق وسوريا وإيران.. أي إقامة دولة «قص ولزق» وإغضاب هذا العدد الكبير من الدول ذات المواقع الاستراتيجية والبترولية. و«كردستان» الوهمية نموذج للتطبيق الحقيقي لدناءة الفيلسوف الخالد الحقارة والسفالة: ميكافيللي!

☆ ☆ ☆

آخرى الكويت!

الانهيار السوفيتي، مثل الانهيار اليوجوسلافي، مثل الانهيار اللبناني - مع فارق واحد هو أن الإتحاد السوفيتي مجموعة من الدول الغنية بثرواتها الطبيعية: أرضًا ومناجم وبترولًا وقمحًا و27 ألف رأس نووي وصاروخ عابر للقارات في جمهورية أوكرانيا..

ثم إن هذه الجمهوريات التي ربطتها الشيوعية بالدم والنار طوال القرن العشرين، أعطاها جورباتشوف فرصة نادرة لأن تكون حرة في اختيارها علاقاتها السياسية والاقتصادية واختارت أن يكون هناك نوع من الاتحاد الاختياري وتبقى دولًا مستقلة، مثل دول الكومنولث البريطاني أو المجموعة الأوروبية، المهم ألا تسيطر عليها موسكو. انتهى كل ما هو سوفيتي وكل ما هو اتحاد، وشكرًا لجورباتشوف مصلحًا عظيمًا وحاكمًا ضعيفًا!

وسوف يحتاج العالم كله إلى وقت طويل، لكي يُعالج من الكوارث التي أصابته بسبب الاتحاد السوفيتي فهو قد ساعد دولًا كثيرة على صناعة القنابل الذرية والرءوس النووية والصواريخ مثل: الهند والبرازيل، وأعطي أسلحة متطورة لكل دول الشرق الأوسط، والعراق أكبر دليل شنيع على ذلك..

ولو تأخرت حرب الخليج سنة أو سنتين؛ لكانت لدى العراق رءوس نووية - ولكن أمريكا بعثت سفيرتها أبريل جلاسبي لتقول للرئيس صدام حسين: تفضل اضرب الكويت فليس بيننا وبينها أي تحالف كالذي بيننا وبين السعودية!

فكان هدفها التعجيل بهذه الحرب في الخليج..

ووقع صدام حسين في الفخ الأمريكي قبل أن يستكمل قدراته الذرية التي ساعدته فيها روسيا وألمانيا والبرازيل والأرجنتين وسويسرا وفرنسا وبريطانيا وكندا.

مثلًا: باعت روسيا في سنة 1980 للهند ثمانين طنًّا من الماء الثقيل المصنوع في أوكرانيا، رغم الاتفاقيات الدولية بتحريم ذلك.. والماء الثقيل ضروري للمفاعلات، لكي تنتج البلوتونيوم والمادة المعدنية المفجرة في القنابل الذرية.. وهذه الكمية من الماء الثقيل تكفي لصناعة سبع قنابل نووية كل سنة!

وغير ذلك من الكوارث سوف تحتاج إلى حروب باردة كثيرة تفاديًا لحرب الإبادة النووية مع نهاية هذا القرن!

☆ ☆ ☆

ضحية الحرية!

الرئيس جورباتشوف مثل كل الثمار التي يكمل نضجها فتسقط. وهو الآن في طريقه الطويل إلى السقوط.

فهو قد أطلق حرية مئات الملايين كما لم يفعل زعيم عظيم في التاريخ..

حررها جميعًا من أغلال الاتحاد السوفيتي، ثم حرر الاتحاد السوفيتي من «الاتحاد» القائم على النار والحديد والجليد والجاسوسية والرعب وأمراء الحزب، ولم يتسع وقته لكي يملأ أفواه الناس بالطعام، فهم في حاجة إذا هتفوا باسمه وعظمته إلى الطاقة. والطاقة تجيء من الطعام والشراب والغطاء، وهذا ما لم يستطع أن يوفره لهم.. فقد أعطاهم حرية أن يلعنوه، وحرية أن يتآمروا.. ضده.. وتآمروا ولم تنجح المؤامرة، ولكن أسباب المؤامرة القادمة لظهور «هتلر» جديد جاهزة تمامًا وفي أي وقت!

وهناك سببان يعجلان بسقوط جورباتشوف: السبب الأول أن الشتاء جاء مبكرًا ومؤلمًا هذا العام وليس لدى الناس وسيلة للترفيه إلا التظاهر في الشوارع والتلاحم الواحد إلى جانب الآخر. والسبب الثاني: - وربما كان السبب الأول - هو الرئيس جورج بوش (الأب). فهو المسئول عن سقوط جورباتشوف. فبوش هو الآخر نجح نجاحًا ساحقًا في الخارج عندما بهر الناس ببراعته في إدارة أزمة عالمية دون غلطة واحدة في الحرب أو في السياسة أو الإعلان أو حشد كل الدول في الأمم المتحدة والجامعة العربية والجامعة العبرية.. ولكنه لم ينجح داخليًّا تمامًا مثل جورباتشوف ولابد أن ينجح داخليًّا حتي يظل رئيسًا لأمريكا لفترة ثانية.. وخوفه من الفشل الداخلي هو الذي جعله يتردد في مساعدة جورباتشوف بالقروض والإعانات الإنسانية.. خاف أن يرتبط بجورباتشوف فيسقط معه.. فجورباتشوف قد صار ضعيفًا ولا توجد إدارة ولا حكومة تضمن لبوش الفلوس ذهابًا وإيابًا. فخوفه من السقوط جعل دول الغرب تخاف هي الأخرى أن تراهن على الحصان الخاسر جورباتشوف.. واتجهت إلى السياسي الانتهازي الذي لا موهبة له بوريس يلتسين الذي ذاق طعم ملايين الدولارات.. وانصرف عن الحكم يملي مذكراته؛ من أجل عشرين مليون دولار أخرى.. ولكنه الأقوى!

☆ ☆ ☆

إنـها غلطتـه!

غلطة الزعيم جورباتشوف أنه يؤكد باستمرار أنه شيوعي، كان ولا يزال، وسوف يبقى، وأن أمريكا سوف تساعده على ذلك - تساعده على أن يخفف أعباء الدول الشيوعية، ويقف شامخًا قويًّا في وجه الرأسمالية الأمريكية، لمساعدة الرأسمالية الألمانية والأوروبية واليابانية؟!

وقد أعلن إعجابه بلينين واحتقاره لستالين، وكان من رأيه أن الشيوعية لو عادت إلى مبادئ لينين، لاختفى الضعف والكراهية والتمزيق المستمر للمجتمعات الشيوعية التي أحرقها ستالين بالنار، وسحقها بالحديد.. ولذلك كان إعجابه العميق بخروشوف الذي كره ستالين ومسح اسمه من القواميس والميادين، ونقل رفاته من قبره وألقى بها في أي مكان، وكان هو أيضًا يرى ضرورة العودة إلى لينين!

وجورباتشوف نادى بالانفتاح على الغرب على الدنيا الواسعة وفتح الأسواق وفتح المصانع لتطويرها ووعد الشعوب السوفيتية بالرخاء سنة 2000. ولم يتصور لحظة واحدة أن الشعوب السوفيتية قد شبعت من الوعود بجنة الطبقة العاملة، وجهنم الدول الرأسمالية.

ولم يتحقق من ذلك في ثمانين عامًا أي شيء.. إلا أنهم ازدادوا فقرًا. فقد زهقوا من الوعود الوهمية - وجورباتشوف واحد من هؤلاء الواهمين الحالمين - ولم يتصور جورباتشوف أن الجمهوريات السوفيتية سوف ترحب بالانفصال عن موسكو.. وبأنها لا تريده رئيسًا لها.. ويوم انسحب جورباتشوف من فوق المنصة، يوم عيد العمال الماضي، كان بسبب المتظاهرين ضده، وأنه سمعهم يشتمونه ويطالبونه بالاختفاء.. وعندما رأى صورته محترقة في أيديهم!

وغلطة جورباتشوف أنه بعد أن نجا من الانقلاب عقد مؤتمرًا صحفيًّا قال فيه: إن والده كافح طويلًا من أجل الماركسية اللينينية - فكيف يخونها هو؟! إنه شيوعي، كان ولا يزال وسوف يبقى، ويتوهم أن بوش (الأب) سوف يساعده على ذلك؟!

وأخيرًا استطاع جورباتشوف أن يكون هو الشيوعي الوحيد في الاتحاد السوفيتي.. ولأنه وقف وحده ضد الأغلبية المعادية للشيوعية، فكان لابد أن يلقى مصير أقلية الأقلية وأن يرحل بعد غد إلى منفاه في أمريكا يكتب هو الآخر مذكراته مقابل عشرات الملايين كواحد من أعظم رجالات التاريخ!

☆ ☆ ☆

غلطة جورباتشوف!

سوف ينضم جورباتشوف إلى نادي الرؤساء والملوك المحالين إلى المعاش. انتهى الرجل العظيم.

صحيح أن جورباتشوف قد حرر الدول من الشيوعية ثم انفتحت الدول الشيوعية بعضها على بعض وعلى العالم كله.

وكانت روسيا - قبل ذلك - ترعى الثورات وكل حركات الإرهاب في العالم.. تمدها بالسلاح والفلوس. وكانت السجون السوفيتية أيضًا مشحونة بألوف الأحرار.

ولا شك أن عظمة جورباتشوف لم تظهر بوضوح، عندما جاء إلى الحكم سنة 1985، وبسرعة أصبح الرجل الأوحد في بلاده ولم يتنبه كل زعماء الغرب إلى عظمته. ولكن مارجريت تاتشر بذكائها وبصيرتها النافذة هي التي قالت: إن هذا هو الرجل الذي سوف يحقق المعجزات الديمقراطية في بلاده، وطلبت إلى الرئيس ريجان أن يعاونه، وألا يرفع عينيه عنه، فهو عدو الأمس حليف الغد!

ولكن من أخطاء جورباتشوف أنه لم يدرك بوضوح القوة الكامنة في الشعوب السوفيتية.. فعندما أطلق سراحها قررت أن تتحرر منه هو أولًا وكانت مقاومته العنيفة للجمهوريات السوفيتية، ثم المذابح في جمهوريات البلطيق، دليلًا على أنه فوجئ بكل ذلك وأنه غاضب عليها، وهذه هي النقطة السوداء الوحيدة في سجله المجيد.

ثم إنه سكت علي المتآمرين، حتى يتمكن من القضاء عليهم، ولولا الحظ فقط، وأن قادة الانقلاب شربوا وحششوا ليلتها؛ لانقضى الأمر، وانتهى جورباتشوف قتيلًا!

والشعب الروسي كان دائمًا قاسيًا على المصلحين من أمثال الإسكندري الثاني الذي نسفوه و«استوبولين» الذي اغتالوه، وجورباتشوف الذي كاد يموت منذ 13 شهرًا.. بينما كان الشعب الروسي رحيمًا بالسفاحين من أمثال:

إيفان الرهيب، وبطرس الأكبر، ولينين، وستالين!

ولم يفطن جورباتشوف إلى أن الذين أخرجهم من السجون لم يشكروه على أنه فعل ذلك.. وإنما هم غاضبون ساخطون؛ لأنهم دخلوا السجون - أو أنهم مثل واحد كان يمشي في الطريق، فكادت سيارة تدهسه، فسحبته أنا من يده بشدة فارتطم بالحائط.. وهو لن يتذكر أبدًا أنني أنقذت حياته، وإنما سوف يذكر دائمًا أنني ضربته في الحائط!

لقد كان جورباتشوف عظيمًا.. ولو كان مؤمنًا بأي دين، لقلت: فليرحمه الله!

☆ ☆ ☆

لا مفاجأة!

كل شيء ينتهي هذه الأيام، جورباتشوف كان رئيسًا لإمبراطورية تنتهي، وهو لابد أن يجمع أوراقه ويحمل متاعه ويرحل بعيدًا عن بلاد حررها؛ فاستغنت عن خدماته.. إنه مثل قبطان سفينة قرر إصلاحها وهي في عرض البحر، فراح يفككها كلها.. ثم تعلق بلوح خشبي يحمله إلى الشاطئ.. أو مثل السفن التي تحدثت عنها «ألف ليلة وليلة».. فقد كانت هناك جزيرة للمغناطيس لا تكاد تقترب منها السفن، حتى تسحب منها المسامير الحديدية التي تمسك ألواحها.. فإذا هي مفككة تمامًا.. أما جزيرة المغناطيس، فهي الحرية والديمقراطية والانفتاح وإعادة البناء التي نادى بها جورباتشوف!

هذه النهاية ليست مفاجأة للزعيم السوفيتي العظيم، فقد استعد لها، ولكن الأحداث كانت أسرع وأقوى مما تصور.. ولأنه رجل مثالي أخلاقي؛ فقد توهم أن الشعوب السوفيتية سوف تشعر بالامتنان له، وهذه هي إحدى أخطائه، بالإضافة إلي أنه ليس موهوبًا في اختيار الرجال؛ فكلهم تمردوا عليه!

لم يفاجأ بالنهاية؛ ولذلك ففي العام الماضي اشترى بيتًا بالقرب من مدينة «هانيا» بفنلندا؛ البيت خشبي، ولونه أصفر، حوله غابة، وله أسوار عالية.. والذين يمرون به يجدون كلبًا ضخمًا من طراز دوبرمان.. وبعض الناس يدخلون ويخرجون، ولكن أصحاب البيت لم يظهروا بعد، اشتراه جورباتشوف بمليون دولار من حساب له في سويسرا.. فأمواله في سويسرا هي حصيلة ترجمة كتابه «برسترويكا» إلى عشرين لغة.. وقد ساعده في العثور على هذا البيت أصدقاء كثيرون.

وسوف تنتقل زوجته أولًا إلى هذا البيت.. وسوف يبقى جورباتشوف بعض الوقت في روسيا، وسوف يلبي دعوة الرئيس ميتران في زيارة فرنسا في الأسابيع القادمة.. وسوف يعرض عليه البقاء في فرنسا، ولكن جورباتشوف يفضل أن يكون في فنلندا القريبة من روسيا، والتي كانت قبل ثورة لينين جزءًا من الإمبراطورية الروسية، وحتى لا يشعر أنه بعيد أو أنهم أبعدوه أو أنهم نفوه.

وسوف يذكره التاريخ على أنه عظيم المصلحين.. أما يلتسين فليس إلا سياسيًّا انتهازيًّا عاديًّا جدًّا.. إنه مثل واحد كان يجلس إلى جوار السائق الذي مات فقفز إلى عجلة القيادة - لا أكثر ولا أقل!

☆ ☆ ☆

المنجل والمطرقة!

أنا رأيت العلم الروسي الجديد فوق «البيت الأبيض»، وهو مقر الرياسة الروسية في موسكو.. اختفى المنجل والمطرقة والعلم الأحمر.. وظهر العلم الأبيض والأزرق والأحمر وسوف يظهر على كل المؤسسات والسفارات.. وقد استولى يلتسين على الكرملين وأرصدته من العملات الصعبة، وعلى كل أجهزة الدولة، ولم يبق بعد ذلك إلا السكك الحديدية والكهرباء والطيران السوفيتي، فلم يتحدد وضعها بعد، ولكن يلتسين هو القيصر الجديد. وهو عندما سافر إلى إيطاليا استقبلوه كرئيس للكومنولث الروسي الجديد.. وأعطوه 760 مليون دولار.. وعندما قابل بابا الفاتيكان أكد له حرية الأديان والسماح للفاتيكان بأن يعيد بناء الكنائس وتعيين الكرادلة وارتباط الكنائس الكاثوليكية بالفاتيكان، كما كانت قبل ذلك..

وأهم قرارات الإمبراطور يلتسين هو سيطرته على وزارة الخارجية.. فلا أحد يعرف إن كان سيترك شيفرنادزه وزيرًا للخارجية.. صحيح أنه صديق جورباتشوف ولكنه استقال احتجاجًا عليه، ثم وقف إلى جوار يلتسين، ثم أعاده جورباتشوف.. وهل سيعيد وزير الخارجية السابق الذي يعمل سفيرًا لروسيا في بريطانيا من أسبوع واحد فقط؛ أي أنه آخر سفير للاتحاد السوفيتي!

إن هناك كلامًا حول شيفرنادزه وسخطًا، عليه فهو من جورجيا.. وهو لا يحسن الكلام باللغة الروسية!

ثم إن لسانه طويل فقد أعلن أنه لا يعرف بالضبط ما الذي حدث في بلاده أخيرًا: انقلاب.. ثورة.. انفجار..

ثم قال: إن الظروف في روسيا سوف تفرز عشرات من أمثال ستالين.. ولينين.. ولكنها لن تفرز مصلحًا واحدًا مثل جورباتشوف.

وقد بعث يلتسين إلى جورباتشوف يقول له: أكرم لك أن تستقيل!

أي أكرم من إقالته وطرده من منصبه، بعد أن تسربت من يديه كل الأشياء.. حتى جرس المكتب لا يرد وعامل التليفون لا يرد.. لقد انسحبت الدنيا كلها من تحته، ومن حوله ومن أصابعه.. ولم تبق إلا صورتها في خياله..

وسوف يكون له بيان يودع فيه بلاده وشعبه.. وهذا الخطاب هو تصريح بدفن جورباتشوف حيًّا كأعظم المصلحين في التاريخ الحديث..

☆ ☆ ☆

الوطني الخائن؟!

أناس يقولون: إن جورباتشوف خائن لوطنه.. لأنه صفَّى الإمبراطورية السوفيتية ومزقها فيجب محاكمته.

غلط. فالرجل عنده يقين بأن بلاده قد خدعوها.. غرروا بها. اتهموها سبعين عامًا بأنها أعظم وأقوى وأغنى دولة في العالم! وأن رسالتها التاريخية هي هدم الرأسمالية الأمريكية والألمانية واليابانية والأوروبية، وبعد ذلك سوف تستولي على ثروات العالم كله فيصبح كل مواطن روسي مليونيرًا.

ومضت السبعون عامًا وليس في بيت أي روسي ثلاجة، ولا سيارة، ولا تليفون، كالموجودة عند أي بواب في أمريكا وألمانيا واليابان..

فقرر جورباتشوف أن يلغي الفلسفة الحمراء التي أفلست.. وخربت بيوت الروس.. وقرر أن يلغي الحزب الذي تمتلئ أكراش قياداته بأقوات الشعب.. وقرر أن يلغي المخابرات التي ضاعفت خوف الشعب.. وقرر أن يلغي البلطجة الحقيرة لكل الدول الشيوعية التي ترضع خيرات روسيا ولا أمل في أن تكبر وتنفطم.. فقرر التخلص من دول أوروبا الشرقية.. وقرر التخلص من أعباء الجمهوريات التي ربطها السوفيت بالحديد والنار.. ولما انطفأت النار ذابت العلاقات الرهيبة بين موسكو والعواصم الشيوعية الأخرى!

وجورباتشوف شيوعي.. ولا يزال، فهو قد قرر إصلاح روسيا من داخلها.

إن جورباتشوف يشبه رجلًا غنيًّا جدًّا.. ومتزوجًا من عشرين سيدة.. وكل واحدة عندها أولاد وأولاد الأولاد.. وعلى الرغم من أنه غني؛ فإنه لا يستطيع أن ينفق على هذا العدد الكبير من الزوجات والأولاد والأحفاد.. ولذلك قرر أن يطلق الزوجات وأن يسرح الأولاد، فقد كبروا.. على أمل أن ما يتوافر له بعد ذلك ينفقه على عدد قليل من الزوجات والأولاد.. فقد كان عنده أمل في أن تصبح روسيا دولة غنية وعظمى أيضًا؛ إذا تخففت من هذه الأعباء، وانفتحت على الغرب، وتلقت المساعدات الاقتصادية والتكنولوجية، فأحس الغرب أنه مصلح عظيم، ولكنه شيوعي يتحفز.. فسبقته الأحداث وجرفته هو وأحلامه الذهبية الحمراء، ولكنه رجل عظيم!

☆ ☆ ☆

نهاية الرمز!

جورباتشوف هو آخر الرؤساء السوفيت الذي نفد بجلده من الموت سمًّا أو قتلًا.. فلم يلق مصير لينين الذي حاولوا قتله، ولا ستالين الذي وضع له السم الأطباء اليهود، ولا مثل أستاذه خروشوف الذي مات على مقعد في إحدي الحدائق. ولكنه سوف يعيش بعض الوقت في روسيا ثم ضيفًا على الدول الصديقة حتى يستقر في قصره الفخم في فنلندا..

وتقرر إخلاء مقبرة لينين - من لينين كما أمر جورباتشوف.. فلينين قد استقر في هذه المقبرة منذ وفاته يوم 22 يناير 1924، وقد تفنن العلماء السوفيت في اختراع مواد التحنيط لكي يحتفظوا للينين بجسمه طريًّا ناعمًا لامعًا في كفن من الزجاج وسط قاعدة من الجرانيت الأحمر ليراه أربعة ملايين زائر كل سنة.

وقد وضع الروس جثمان ستالين إلى جواره سنة 1935، حتى سنة 1961، حين أمر الزعيم الكبير خروشوف بنقله إلى ما تحت الأرض، فجاء عدد من الجنود ليلًا وأخرجوه من التابوت ووضعوه في صندوق خشبي ودقوا فيه عددًا من المسامير كان لها صدى في الميدان الأحمر!..

وتوارى ستالين تحت التراب كما توارى اسمه ورسمه وتماثيله من كل مكان..

أما لينين فقد تمكن العلماء السوفيت من ابتداع مواد كيمياوية للتحنيط أكملوها سنة 1950 وجعلوها سرًّا، واستطاعت هذه المادة أن تقضي على البكتيريا تمامًا.. وفي نفس الوقت لا تجعل الماء في جسم لينين يتبخر فقد احتفظوا لجثمانه بدرجة حرارة 17 مئوية بصفة دائمة..

وفي كل سنة يأخذون عينة من جسم لينين ويفحصونها، ليعرفوا إن كانت هناك أية آثار للتحلل.. ثم يغمرون جسم لينين في المحلول الكيمائي لمدة شهر كل خمس سنوات..

والرجل لم يعد له معنى الآن، فقد كان مصدر كل مصائب روسيا في السبعين عامًا الماضية!

لقد انتهى المذهب والرمز، وسوف يدفنونه مع العلم الأحمر والمنجل والمطرقة.. إلى جوار والدته وأخته في مدينة سانت بطرسبورج - لينينجراد سابقًا!

☆ ☆ ☆

كلهم موظفون!

الروس ليسوا رجال أعمال.. فهم لا يفهمون في التجارة ولا خبرة لهم.. فهم جميعًا موظفون في دكاكين الدولة.. مجندون.. لا رأي ولا شخصية ولا مصلحة لهم في مكسب أو في نجاح.. وإنما هم يؤدون ما هو واجب عليهم..

ونحن نعرف هذه الصورة جيدًا.. نعرف ما يفعله موظفو الحكومة وما يفعله موظفو الشركات الأجنبية في بلادنا.. أو ما يفعله صاحب العمل، وما يؤديه العامل.

والروس عمال مجندون وفلاحون مجندون لا يملكون أكثر من الذي يضعونه على أجسادهم وفي أيديهم.. ولا رأي ولا رؤية لهم.. فالرأي للدولة والرؤية للحزب.. وهم مسوقون إلى الأمام أو الخلف، يمشون نيامًا.. سبعين عامًا!

وفجأة حاول جورباتشوف أن يغرس فيهم في يوم وليلة أنهم أصحاب البلد.. وأن كل الذي في أيديهم سوف يكون ملكًا لهم.. هيه!! ولكن ما الذي في أيديهم؟

فالبلاد فارغة، بل أكثر فراغًا مما كانت.. ثم إنهم شبعوا كلامًا.. بل إن آذانهم قد انسدت من الكلام الفارغ المعسول سبعين عامًا.. وامتلأت عيونهم بصور الخراب والدمار الذي سوف يصيب أمريكا وألمانيا واليابان.

زهقوا من كلمة «المرحلة» القادمة.. والمرحلة السابقة.. ولم يعرفوا في تاريخهم.. كله إلا مرحلة واحدة.. هي مرحلة الشيوعية التي طالت ولم تظهر عندهم أية بوادر لمرحلة أخرى..

وجاء جورباتشوف يعلن نهاية «المرحلة الشيوعية» وبداية المرحلة الاشتراكية.. أو الشيوعية التي أعيد بناؤها؛ لكي يملك المواطنون بيوتهم وأرضهم وسياراتهم.. وحريتهم في الدخول والخروج..

ولكن الحرية التي استولى عليها الشيوعيون خارج روسيا، قد سحبت كل رصيد الروس من الشيوعية، فلم يبق.

ولما كان خروشوف يقول لنيكسون: أنتم لا تسمحون للناس بدخول بلادكم.. والدليل على ذلك أن لديكم مكاتب للهجرة على حدود المكسيك!!

فكان رد نيكسون: إننا لا نمنع الأمريكان من الدخول والخروج.. ولكن أحدًا في أمريكا لا يريد أن يهاجر منها.. ولكن في روسيا لا أحد يستطيع أن يهاجر منها ولا أحد يريد أن يهاجر إلى روسيا وإذا هاجر منها فإنه لا يحب أن يعود!

والروس كلهم يريدون أن يتركوا بلادهم ليعملوا ويأكلوا ويشربوا في بلاد أخرى.. إن أصعب ما يصادف الجمهوريات المتآلفة مع روسيا، أنها سوف تواجه أعظم مشاكلها.. وهي أن يمارسوا التجارة التي لا يعرفونها!

☆ ☆ ☆

بلا ملامح!

جورباتشوف: رجل هذا القرن..

بوش (الأب): رجل هذا العام..

بطرس: رجل هذا الشهر..

ميادة: سيدة هذه الليلة..

فالتغييرات التي أحدثها جورباتشوف في خمس سنوات لم يحققها إنسان في التاريخ، أطلق حريات مئات الملايين من أغلال الشيوعية.. نزع الستار الحديدي.. وحطم حائط برلين، ووحد ألمانيا، وأزال أمراء الحزب، وألغى المخابرات.. وفتح الأبواب والنوافذ حتى أصيب الناس بزكام الحرية والديمقراطية.. فأطلق طوفانًا كان هو أول ضحاياه..

وبوش أروع من أدار أزمة حربية سياسية اقتصادية، فقد استطاع أن يحشد الدنيا وراءه في حربه ضد صدام حسين، حطمه من فوق وأخرجه من الكويت، ومنع إسرائيل من دخول الحرب.. ولم يرتكب غلطة واحدة في التحضير للحرب ومشروعيتها وإدارتها وبدايتها ونهايتها، وأطفأ آبار البترول.. وحقق السعادة لجميع الأطراف، حتى لصدام حسين..

فكان من الممكن قتله - ولكنه لم يفعل!

ود. بطرس غالي كوفئ دوليًّا على علمه وخلقه، وبراعته الدبلوماسية، وقدرته الفريدة على الوفاق بين الشعوب الإفريقية والعربية والأوروبية.. ونحن سعداء باختياره.. وكان نجاحه حدثًا عظيمًا. وسوف ينتظر العالم منه ما الذي يمكن أن يحققه للإنسانية!

والمطربة ميادة الحناوي قد وقفت وراءها أكبر قوة ضاربة موسيقية في العالم العربي، كأن مصر تعتذر لها عن منعها من دخولها 15 عامًا.. فقررت أن تركب في ذراعيها ريش النسور لتطير في عالم الغناء والموسيقى.. ولم تتوافر لمطربة واحدة في تاريخ الغناء العربي كل هذه القوة في ليلة واحدة.. فهي الليلة تقدم أوراق اعتمادها للمستمع المصري الذي يتذوق حلو الكلام والأنغام..

فإما أن تنجح كما لم تنجح مطربة في العالم، وإما أن يكون سقوطها مدويًا..

فميادة السورية مثل وردة الجزائرية مثل عزيزة جلال المغربية: صوت قوي سليم صحيح، ولكن ليست له ملامح شخصية. وهي جميعًا أصوات أقوى من صوت فيروز ونجاة الصغيرة وشادية ولكن هذه الأصوات الأضعف لها ملامح شخصية جميلة.. والشيخ الطبلاوي صوته أقوى من صوت الشيخ رفعت.. ولكن الجمال والجلال والأبهة في حنجرة الشيخ رفعت!

فالليلة إما هي زفة عروس، وإما هي مطربة بالإكراه ولا إكراه في الطرب!

☆ ☆ ☆

حرية الاختلاف!

العالم يتفرج على التغييرات الثورية في الاتحاد السوفيتي: الانفتاح على الغرب، وإزالة الفوارق المذهبية والعقائدية والبيروقراطية في داخل الاتحاد السوفيتي.. ثم إعادة البناء: برسترويكا.. والتي ينادي بها جورباتشوف..

ونحن نقول «ينادي بها». ولا يمكن أن ينفرد هو بالرأي أو الرؤية. ولكن لابد أن عددًا كبيرًا من القادة الأقوياء في روسيا يرون ذلك، ولابد أنهم درسوا وحللوا وناقشوا ووافقوا على النظرية القوية في مواجهة العيوب التقليدية والتاريخية والمصارحة بها، والدعوة إليها على كل مستويات الحزب في كل الجمهوريات السوفيتية. لابد وطبيعي أن تلقى معارضة. ومن مظاهر التغيير أيضًا أن يعلن جورباتشوف عن هذه المعارضة واختلاف الناس حولها ومقاومتها ثم الإعلان في الصحف عن كل ذلك.. شيء جديد يتفجر في روسيا أو يهب عليها..

إنهم في روسيا يواجهون حرية الاختلاف في الرأي، والمجاهرة بذلك، والعالم الغربي يندهش لما يحدث ويتشكك في كل ذلك، هل ينجح؟ هل يفشل؟.. فالغرب يريد تغيرًا في روسيا، هذا التغير يؤدي إلى التفاهم والتفاعل، وإلى التعايش بلا توتر ولا استعداد للحروب.. ويرضي غرور الغرب أيضًا أن يجد روسيا قد اقتربت منه، تحاول أن تجرب أخيرًا نوعًا من الديمقراطية كانت قد رفضته.. وهذا يؤكد سلامة الديمقراطية التي يعيش بها وعليها الغرب من عشرات أو مئات السنين..

أما روسيا فتكسب كثيرًا جدًّا بهذا التغير.. فهي - إذن - قد تخلت عن أن تقوم بدور «البعبع» للعالم كله، وأنها تتآمر وتهدم وتخرب.. وهي الآن وأخيرًا لا تريد ذلك، وإنما هي تدخل المباريات الدولية لتحكم العالم بنفس الأساليب الغربية.. ولا يصح إلا الصحيح. والصحيح هو الذي يعطي للشعوب حقها في الحياة الكريمة وهو الذي يقارب بين الطبقات والفئات. ويرى أن الحياة في سلام من أجل الرفاهية هي القاعدة..

إذن جورباتشوف «57 سنة» هو جيل جديد من أبناء القرن العشرين من السوفيت. هذا الجيل لا يريد أن يطيل في عمر الماركسية على جثث الشعوب السوفيتية، وإنما في «حياة عينها». انتهت كل المخاوف.. وسوف نبدأ التطبيق فورًا استدراكًا للوقت الذي ضاع!

☆ ☆ ☆

زوجته الفيلسوفة!

عندما تحدثت وسائل الإعلام الغربية عن جورباتشوف، تناولوه كما يتناولون المحافظين الجدد في أمريكا؛ حياته وصورة زوجته وأولادهما.. ولاحظوا أن الزوجة شياكة، وأنها لا تخفي حبها للأناقة والجمال ومتابعة الموضة في أي مكان. ولا يهمها ما يقال عنها في الغرب، أو في داخل روسيا. فليس من المفروض أن تعيش وتموت كما ماتت زوجات زعماء روسيا، فلا يراهن أحد إلا يوم جنازة الفقيد.

ويفاجأ الناس بأنه كان من الضروري التحفظ عليها أو إخفاؤها؛ لأنها دب روسي أو فيل هندي بليد، قبيح الصوت والصورة!

ولكن رايسا جورباتشوف جامعية متفلسفة هي الأخرى. ولها رأي ولها ذوق ولها حق وهي لا تحجر على رأي أحد، كما أنه لا حق لأحد أن يحجر على رأيها. شيء مفاجئ. ولم يكن ذلك إلا «رموز» النظرية الجديدة التى بدأ يعلن عنها جورباتشوف - أو المجموعة المتطورة التي أتت به ودفعته إلى الحكم.. أو آمنت به وتحمست، وسوف تعمل على نجاحه رأيًا ورؤية ومستقبلًا.

وبدأ الناس يتطلعون جيدًا إلى وجه جورباتشوف: شباب.. حيوي.. يضحك.. ووزير خارجيته له ابتسامة حلوة. وإن كانت عيناه روسيتين صارمتين..

كما أن زوجة جورباتشوف أكثر أناقة من نانسي ريجان. وأصغر سنًّا، وأكثر ثقافة ولها دور تاريخي!!

وحاولت صحف الغرب أن توقع بين السيدتين. وأكلت الطعم السيدة الأولى في أمريكا.. وتحرشت بزوجة جورباتشوف، كأنها أرادت أن تفعل ما فعله نيكسون مع خروشوف.. لتكون مادة للصفحات الأولى: قالت لها..

وشتمتها وشخطت فيها.. شيء من مثل هذا!

وظهرت صور زعماء روسيا من أول ستالين إلى برجنيف. ووضعوها معًا.. وكان جورباتشوف ألطف وأطرف وأكثر أناقة وانفتاحًا وأقرب إلى الغرب من أي زعيم سابق..

وبدأ التشكيك في الوجوه السوفيتية الجديدة، التي تضحك وتلقي النكت والأمثال الشعبية.. وقالوا: ممثلون.. كذابون.. وسوف يقفز الدب الروسي حالًا تحت هذه الوجوه!

وظهر الدب الروسي طبعًا، ولكن يحمل في يده «إنجيلًا» إصلاحيًّا.. قنبلة تاريخية.. خطوة حضارية مخيفة، مخيفة للروس أنفسهم وللغرب أيضًا!

☆ ☆ ☆

التغيير هدف!

وكان كتاب «البروسترويكا» بقلم جورباتشوف.. ولم يحدث أن ألف زعيم سوفيتي كتابًا وهو على قيد الحياة. وإنما ظهرت لهم نشرات وخطب طويلة.. وقصص نسبت إليهم بعد موتهم.. ولكن هذا الرجل أراد أن يؤكد - وقد نجح - أنه جديد في كل شيء: فالكتاب بقلمه أو بعلمه أو على لسانه.. وليس قصة حياة ولا اعترافًا..

إن جورباتشوف حديث العهد بقيادة بلاده. ولكنه في هذا الكتاب يتحدث: منذ السطر الأول عن رغبة الشعوب السوفيتية في التعبير وفي الإصلاح، وفي تحطيم الجمود الفكري والإداري والاقتصادي والصناعي والاجتماعي..

واعترف جورباتشوف بأن كل أشكال الفساد موجودة في بلاده، وكل التجاوزات موجودة.. وكل السلبيات والرشاوي والمخدرات والضياع بين الشباب. وقد أدى كل هذا التطرف في تطبيق الماركسية إلى التخلف الزراعي والصناعي في روسيا أي تخلفهم عن أوروبا وأمريكا واليابان. اعترف جورباتشوف بكل ذلك! وهو نوع من النقد الذاتي على أرفع المستويات، وليس بعد ذلك إلا العمل الإيجابي.. الإصلاح الثوري.

ومن حين إلى حين ينبه القارئ إلى أن الذي بين يديه ليست وجهة نظره هو وحده - أي أنه نام وقام ورأى فيما يراه النائم أنه زعيم، وأنه يغير بالأمر المباشر كل شيء لا يعجبه، وإنما قال: إن هذه الآراء كلها نوقشت على جميع المستويات، ولقيت ولا تزال معارضة قوية، وبعد الموافقة عليها كان لابد من إعلانها والمجاهرة بها.

وأشار جورباتشوف إلى أن مصدر القلاقل في الكرة الأرضية هو دول العالم الثالث: حيث الفقر والكبرياء.. دول فقيرة تريد مالًا من الغرب، وفي نفس الوقت تريد استقلالًا عن الغرب. تستقل سياسيًّا ولا تستقل اقتصاديًّا..

ودول العالم الثالث لن يعيش الغرب بغيرها، ولن تعيش بغير الغرب.. فلابد من الشيوعية ولابد من الرأسمالية. ولابد أيضًا من خلق جسور للعبور، ومناطق سياسية واقتصادية للتلاقي والتعايش!

والكتاب برنامج للعمل المستمر.. والنظر بعض الوقت إلى الوراء، ومعظم الوقت إلى الحاضر والمستقبل. والإصلاح ممكن، وقد بدأ.

☆ ☆ ☆

الروك لا يقاوم!

أما نساء الاتحاد السوفيتي - الدببة والفيلة - فإن زوجة جورباتشوف فتحت الطريق أمامهن:

ارتداء كل ما يعجب المرأة السوفيتية.. وسوف تأتي لها بكل مصممي الأزياء الفرنسيين، وسوف تتعدد الخطوط والأطوال، حول الرقبة وحول الذراعين وفوق الركبتين.. هي حرة تكشف وتقلع.. ما يحلو لها.. لا خوف على الاشتراكية من ظهور الركبة أو سقط خط الرقبة أو خط الظهر.. أو انعدمت الأكمام أو الجوبات.

المرأة تتحرر وتتألق؛ أما الشباب فهم يرتدون البنطلونات الجنز الأمريكية الضيقة.. إن ضيق الساقين ليس خنقًا للحريات، إنها مسايرة العصر والتخفف من الضغوط الكاذبة على الشباب الذي يعيش مع الشباب..

إنه لا يوجد شاب واحد في أي مكان يقاوم موسيقى الروك.. إن الراقص الشاب والمؤلف الشاب.. والمفكر الشاب كلهم أبناء جيل واحد، ولا تفرقهم اللغة أو الدين أو المكان.. إنهم جميعًا شباب، وهذه نسمات العصر، وروح العصر.

أذكر أنني من عشرين عامًا، رأيت في موسكو شبابًا يرقصون الروك آند رول، والناس ينظرون إليهم في دهشة، وبعضهم يرى في ذلك دليلًا على أن المرض الأمريكي بدأ يتفشى بين الشباب.

وظهرت محلات السندوتشات والهامبورجر في روسيا - تمامًا كما هي موجودة في كل الدنيا، فالسندوتش هو أصدق صورة للعصر: وجبة من الطعام سريعة بين يديك.. تأكلها وأنت تمشي وأنت تجري، وأنت تعمل، وأنت تقرأ، وأنت ترقص - إنها مفردات الحياة العصرية السريعة، فلا خوف على عقول الناس إذا ارتدوا الموضة الفرنسية والسندوتشات الأمريكية، والكافيار الروسي.. وسجائر كوبا وراديوهات اليابان والديك الرومي، والقهوة التركي، والسجاجيد العجمي، وماء زمزم السعودي، والزبدة الهولندي والجبنة الدنمركي، والإسباجتي الإيطالي والفول السوداني، والقطن المصري - فهي موجودة في كل مكان وعند أبناء كل دين وكل مذهب.

ولا خوف منها؛ لأن الذي يغير ويتغير أعمق من ذلك كثيرًا!

☆ ☆ ☆

ضعف جورباتشوف!

لقد أبطأ جورباتشوف في تحقيق الإصلاح، فالشعوب السوفيتية كانت ترى جورباتشوف عظيمًا في العالم الخارجي، ولا يرون له أثرًا في السوبر ماركت.. وإذا كان قد أعطاهم الحرية، فهي حرية التعبير عن ضيقهم به، وسخطهم عليه، دون خوف منه..

وقد أبطأ الغرب في مساعدة جورباتشوف وذلك لسوء الظن بقدرته على مواجهة المعارضة، فبوريس يلتسين قد أقام المظاهرات ضده، وطالبه أكثر من مرة بأن يقدم استقالته.. ثم إن الغرب قد أهانه عندما رفضت جميع مطالبه قبل انعقاد مؤتمر القمة!

وقد أثبتت محاولة الانقلاب الأخيرة أن هناك نقاط ضعف في سياسة جورباتشوف.. أولى هذه النقاط أن الذين ثاروا عليه كانوا جميعًا من اختياره هو.. ومعنى ذلك أنه رجل يحسن التفكير ولا يحسن التدبير.. أي اختيار الرجال الذين ينفذون أفكاره.

ومعنى ذلك أيضًا أن بوريس يلتسين كان أبعد نظرًا وأكثر فهمًا للرجال.. فهو قد اعترض عليهم وعلى جورباتشوف.. فكأن الشعوب السوفيتية عندما أعادت جورباتشوف أعادت الرمز، ولم تُعِد الرجل.. أعادت الإصلاح ولم تعد المصلح..

وهكذا أصبح جورباتشوف أصغر من يلتسين الذي كان أشجع وأقوى وأكثر صلابة.. ثم إن يلتسين قد أعطى لنفسه صلاحيات رئيس الجمهورية أثناء غيابه، فقاد الجيش والمخابرات والبوليس وعين رجالًا، واستبعد آخرين، وهذه مشاكل سوف تؤدي إلى مواجهة ومصادمة بين جورباتشوف ويلتسين، تنتهي بدور رمزي لجورباتشوف، ودور حقيقي لبوريس يلتسين.

إن يلتسين يشبه واحدًا كان يمشي في الشارع، فرأى سيارة مسرعة تكاد تصطدم بجورباتشوف وتقضي عليه فسحب هو جورباتشوف بشدة، فارتطم رأسه بالحائط فسال دمه.. وسوف ينسى جورباتشوف أن يلتسين هو الذي أنقذه ولا يذكر إلا جروحًا في رأسه.

وقد أدى اتصال زعماء الغرب بيلتسين، والإشادة بشجاعته النادرة، وعظمته المؤكدة إلى توسيع الفجوة القديمة بين الرجلين - والبقية سوف تأتي لا محالة!

إذن؛ فالغرب لم يخطئ في تقدير خطورة يلتسين، ويلتسين لم يخطئ في تقدير جورباتشوف أيضًا.

☆ ☆ ☆

لحياة أفضل!

هل الغرب والشعب السوفيتي قد أعادا جورباتشوف إلى الحكم، أو أنه أعاد البروسترويكا التي يمكن أن يطبقها يلتسين أفضل وأشجع من جورباتشوف؟

لا شك أن جورباتشوف هو صاحب الفضل الأول في تحقيق الأمل الجديد للشعوب السوفيتية في حياة أفضل وفي أن تخلع عنها قيود الاستبداد والإرهاب وقوالب الجوع والتخلف..

ولا شك أن جورباتشوف هو الذي زلزل عروش أمراء الماركسية، وسلاطينها في الداخل والخارج.. وهو الذي نفخ في روح الشعوب الشيوعية في أوروبا الشرقية والشعوب السوفيتية فثارت وراءه على الطغيان والاستبداد، وأطاحت بالعروش القائمة على جماجم الأبرياء، لا شك في ذلك. وهذا شرف وعظمة. استحق عليها جورباتشوف جائزة نوبل للسلام، وأن يكون من الخالدين في تاريخ الحرية البيضاء..

أما شجاعة جورباتشوف فهي أدبية فقد كشف عورات الحياة السوفيتية الحزبية والإدارية والفكرية.. ولم يجد في ذلك حرجًا، إنه طبيب طلب من المريض أن يخلع ملابسه وأن يقول: آه.. وقال: آه.. ثم لعن جورباتشوف أيضًا الذي فضحه أمام نفسه وأمام العالم.. فقد عرف الشيوعيون أنهم عراة. وأنه هو وحده الذي سوف يقدم لهم الكساء والشراب والطعام والحرية.. وأحسوا أن الطريق طويل وأن العلاج بطيء.. فاتهموه بأنه هو الذي يعوق مسيرة الخلاص والرفاهية!

وكان أول الذين اتهموه يلتسين، ولم يفلح جورباتشوف في أن يحول دون يلتسين والنجاح الشعبي الساحق.. حتى أصبح رئيسًا لجمهورية روسيا.. وعدوه الأول.

وأخيرًا.. وبكل الحسابات السياسية والقانونية والعسكرية والاستراتيجية والاستخبارية، لايزال جورج بوش أعظم رجل أدار أزمة في التاريخ؛ أزمة روسيا هي أحدث الأزمات وإن لم تكن آخرها!

☆ ☆ ☆

..تجريح لعالمنا!

ونحن نتفرج على الذي حدث في موسكو، وقبل ذلك على الذي حدث في الخليج.. وقبل ذلك على الذي حدث في البنوك.. وقبل ذلك على التخلص من القطاع العام.. ما الذى يمكن أن نستفيده من كل ذلك؟ ما نصيبنا؟.. ما واجبنا؟.. كيف نبدأ؟ وكيف نمضي؟. وهل نحن جادون في كل الذي نقوله أو الذي ندعيه لأنفسنا؟!

وإذا لم نخرج بفائدة واحدة من كل ذلك، فنحن لا نزيد عن قراء للصحف و «سمِّيعة» للإذاعة ومتفرجين على التليفزيون، وضاحكين على النكت - لا أكثر ولا أقل!

ومعنى ذلك أن الدنيا مهما انقلبت وتشقلبت، والعروش مهما اهتزت، وأجراس الحرية مهما تعالت دقاتها؛ فإننا يا بدر لا رحنا ولا جينا!

فما معنى الذي قاله جورباتشوف في كتابه البروسترويكا - إنه أصدق وأدق نقد عنيف لكل عورات العالم الثالث، وفساد الإدارة، وانهيار الأحزاب السياسية التي لا تخدم إلا أصحاب الكروش الواسعة الذين يديرون الأحزاب والدولة لحسابهم الخاص، وليس من أجل الشعوب.

وجورباتشوف لم يضع أصابعه على أوجاع الشعوب، واكتفى بسماع مزيد الألم من شفاهها.. وإنما وجد حلًّا. وفرض الحل دواء يرفضه المريض.. وكان لابد أن يُرغم على أن يتجرعه بالقوة.. والعلاج مؤلم والدواء مر، والشعوب سريعة الملل عميقة الضيق.. ولابد من الصبر معها والصبر عليها.. ولكن الشعوب لم تصبر على جورباتشوف، والزعماء آباء الشعوب، والشعوب يدها على معدتها وليس على دماغها - وما أبعد المسافة بين الدماغ والمعدة.. ولا تزال المعدة هي الباب الملكي لعبور القلب إلى العقل!

ولكن جورباتشوف سقط بين هذه الفجوات.. فهو مفكر سياسي وليس زعيمًا سياسيًّا وهو أفلاطون المثالي، وليس ميكافيللي الواقعي، وقد خرج جورباتشوف من هذه المحنة السياسية ضعيفًا متهالكًا، كأنه لم يتوقع هذه الخيانة. إذن هو ليس سياسيًّا، وإذن هو لم يستوعب قواعد اللعبة!

ثم إن جورباتشوف قد أخطأ في الحساب تمامًا.. فقد أيقن أن يلتسين لم ينقذه إعجابًا به.. وإنما أنقذه حرصًا على نفسه وتأكيدًا لضعف جورباتشوف، وأحقية يلتسين في أن يكون الفتى الأول - وسوف يكون!

☆ ☆ ☆

فشل الفيلسوف!

في الفلسفة أن أفلاطون قد ألف الدولة المثالية التي تتعادل فيها الفلسفة والموسيقي والرياضة من أجل حكم عادل.. فهو قد أقام «جمهورية» لا وجود لها إلا في دماغه، وقد طلبوا إليه مادام صاحب النظرية أن يكون صاحب التطبيق أيضًا.. وأعطوه جزيرة.. وكان أول الهاربين منها..

وكذلك هرب كثيرون.. من هذه المسئولية الكبيرة: لطفي السيد في مصر، وكروتشه في إيطاليا وأينشتين في إسرائيل.

ولذلك تأكد انهيار جورباتشوف.. فقد اعترف بأنه أخطأ في اختيار مساعديه رغم معارضة البرلمان.. أي أنه غلطان والبرلمان على حق.

وغلطة أخرى هي أن جورباتشوف يؤمن بالحكمة العربية التي تقول: الرجوع إلى الحق فضيلة.. فضيلة عندنا نحن، ولكنها هناك ضعف وارتباك وعجز عن الرؤية وانفراد بالقرار دون الاستعانة بالمستشارين، فلابد أن يكون له مستشارون؛ لأن الاتحاد السوفيتي ليس «عزبة» والديه.. ومصير مئات الملايين من البشر ليس «نزوة» رياسية!

وأخطأ في الامتنان العظيم يلتسين، فمعنى ذلك أن يلتسين كان دائمًا على حق.. وأن الشعب قد أخذ بوجهة نظره هو، فوقف إلى جواره، لا من أجل جورباتشوف ولكن من أجل يلتسين وحقه في أن يكون الرجل الأول..

وأخطأ عندما ذهب في الامتنان إلى درجة أنه أجلس يلتسين على مقعد الرياسة يختار رجاله في الوزارة الجديدة - رجال يلتسين - فلم يبق إلا أن يتفضل الرئيس جورباتشوف مشكورًا مقهورًا ويترك مقعده.. وسوف يفعل ذلك!

وأخطأ جورباتشوف عندما قاوم إلغاء الحزب الشيوعي مع أنه النتيجة الحتمية لكل الإصلاحات وإعادة البناء.. وهذا يؤكد أن الرئيس جورباتشوف لم يستوعب البروسترويكا التي نادى بها ولم يتنبه إلى أن هذه هي النهاية..

وليس المطلوب الآن «جورباتشوف»، وإنما المطلوب «جور - بوش - وف» أي يلتسين!

☆ ☆ ☆

من فوق!

تحركت الأقمار الصناعية الأمريكية إلى ما فوق شبه جزيرة القرم. ورصدت التحركات داخل بيت الرئيس جورباتشوف وحوله.. فقد نقل قمر التجسس الشهير «نافستات 2» الذي كان يرصد تحركات صواريخ سكود العراقية فوق الخليج، ويبعث بحركتها إلى أمريكا التي تصدر تعليماتها إلى قواعد صواريخ باترويت في السعودية لإسقاطها.. وهذا القمر الأمريكي يستعين بالأشعة تحت الحمراء لتصوير أصغر حشرة تزحف على نافذة جورباتشوف!

كما استخدم الأمريكان «التليفونات الاعتراضية» التي تدخل في مئات الخطوط التليفونية، وقد اعترضت مئات الخطوط في موسكو، وفي شبه جزيرة القرم - تسجل وتبعث بالتسجيلات إلى سفارتي بريطانيا وأمريكا في موسكو.. ثم تبعث بما سجلته لتحليله في مدينة لانجلي الأمريكية بولاية فرجينيا وإلى مدينة شاتنتهام ببريطانيا، لتقوم المخابرات البريطانية «م 15» بتحليلها.. وقد أقامت أمريكا جهازًا جديدًا للأمن القومي «كراي» وزودته بأجهزة فائقة الحساسية والقدرة الهائلة على تحليل المعلومات والصور بمنتهى السرعة!

فقد عرف الرئيس بوش كل شيء لا يراه ولا يعرفه جورباتشوف.. وعرف أسماء المتآمرين وأرسلت أمريكا قائمة بهذه الأسماء كلها إلى الرئيس يلتسين، ويبدو أن بعض رجال المخابرات الروسية قد استعان بالأطفال لإبلاغ المعلومات والأوامر.. وكانت أصوات الأطفال مما حير المخابرات الأمريكية والبريطانية ومما ضايق أجهزة التنصت - التصنت خطأ لغوي - استخدام الرئيس جورباتشوف لراديو ياباني شديد الحساسية لا يكف عن متابعة الإذاعات المختلفة.. فقد كان صوته يتداخل مع التليفونات اللاسلكية.

وقد تعجل وزير خارجية بريطانيا هيرد عندما أدلى بتصريح يدل على أنه يعرف كل شيء - وكان المفروض أن يتحفظ قليلًا، وعندما سمع الرئيس بوش (الأب) تصريح هيرد ضحك وقال: أساتذتنا في الجاسوسية قد أخطئوا!

ويقال: إن الراديو الذي أُهدي للرئيس جورباتشوف كان في داخله جهاز إرسال دقيق يصب كل المعلومات في مكان لم يتحدد بعد!

☆ ☆ ☆

اسمه بوريس!

يقول يلتسين في مذكراته: إنه في يوم مولده «31/1/1» كان القسيس مشغولًا جدًّا وقد شرب كثيرًا، فكان يترنح.. وتقدمت أم يلتسين بطفلها ومن ورائها زوجها.. فوضعه القسيس في الماء المقدس وتركه وغطس الطفل تحت الماء وانشغل عنه القسيس فصرخت أمه وامتدت يدا القسيس لإنقاذ الطفل الذي كاد يموت.. وتعاون الأب والأم على استخراج الماء الذي ابتلعه الطفل..

فقال لهما القسيس.. ما دام هذا الطفل قد استطاع أن ينجو من الغرق؛ فسوف ينجو من مصائب كثيرة.. ولذلك أسمِّي هذه الطفل بوريس أي القوي العنيد!

وكانت نبوءة من القسيس.. فيلتسين ابن فلاح فقير. وكان أبوه قاسيًا خشنًا. وكانت أمه هي التي تعوضه عن قسوة الأب وقسوة الحياة أيضًا. وقد اكتسب يلتسين الصلابة من والده، وحب الناس من أمه.. ولذلك يجد نفسه أقوى بين الناس وفي مقدمتهم.. وكان من الممكن أن يموت يلتسين في حوادث كثيرة وقعت في حياته.. ولكن عنده إصرارًا وعنادًا وإيمانًا بأنه سوف ينجح..

وقد نجح كثيرًا.. نجاحه أكثر من فشله وصعوده أكثر من سقوطه.. وهو يضحك ويقول: إن الناس جميعًا تشدهم جاذبية الأرض إلا أنا.. فالجاذبية عندي في السقف.. فجاذبية السقف هي التي ترفعني إلى فوق!

لابد أن يلقى يلتسين ما يستحقه من الشعوب السوفيتية.. صحيح أنه لولا جورباتشوف ما كان يلتسين.. فجورباتشوف هو الذي أعطى الحرية.. وهو الذي حطم الأصنام.. وهو الذي جرد الحزب الشيوعي من سلطاته المقدسة ومن ثرواته الخرافية.. وهو الذي حطم أغلال الدول الشيوعية في شرق أوروبا وفي البلطيق، وهذه العظمة لن ينساها التاريخ لجورباتشوف.. فهو الأب الروحي.. وهو الذي ارتفع بالحزب الشيوعي إلى القمة لكي يهدمه من فوق ومن تحت!

فجاء يلتسين وأجهز على الحزب وعلى المنجل والمطرقة في العَلَم الشيوعي.. وبكلمة واحدة ألغى علم المنجل والمطرقة.. علم الفلاحين العبيد والعمال الأرقاء.. لقد فتح جورباتشوف الأبواب والنوافذ وتبعه الشعب كله بقيادة يلتسين.

☆ ☆ ☆

مسألة وقت!

السياسة لا قلب لها ولذلك فلن يبكي أحد على جورباتشوف، وعلى الذي يحدث في الجمهوريات السوفيتية.. فكل سياسي يمسك الورقة والقلم ويحسبها ما الذي يكسب؟ وما الذي يخسر؟ وما هي الفرصة المواتية؟

فالرئيس بوش (الأب) رجل حريص جدًّا، ولا يبدو على وجهه أي عاطفة من أي نوع.. فكلامه بالحساب.. وهو الذي يأمر وينهى في الدنيا.. وكلمته تساوي ألوف الملايين والصواريخ وسفن الفضاء.

أما أنه يحترم جورباتشوف فلا شك في ذلك ويتمنى له البقاء، لأنه صاحب نظرية، ولأنه رجل عاقل متزن.

وأما أن بوش معجب بيلتسين فواضح جدًّا. فهو رجل سياسي شجاع وقادر على مواجهة الجماهير وتحريكها، ولكنه في الوقت نفسه قادر على حشدها قريبًا من جورباتشوف وبعيدًا عن بوش.. والرئيس بوش يرى أن المحرك الأول لكل مشاعر يلتسين هو الانتقام من جورباتشوف والتعالي عليه.. ولذلك فأمريكا حريصة في التعامل مع يلتسين.

وبوش يرى أن روسيا ليست دولة ضعيفة وإنما هي الدولة الوحيدة في العالم القادرة على تحطيم أمريكا نوويًّا في 27 دقيقة.

ويري بوش - والرأي رأيه والرؤية رؤيته - أن الاتحاد السوفيتي سوف يحتاج إلى وقت طويل للتوفيق والتلفيق. وأن جورباتشوف سوف يبقى تاجًا على رأس الإصلاح.. تاجًا وليس رأسًا، وهذا هو الإجماع المؤكد في روسيا وفي العالم كله.. على مستقبل جورباتشوف.

وبعد سنوات من المعونة الأوروبية والأمريكية، سوف تنهض الدولة السوفيتية الجديدة.. ولذلك فأمريكا مستمرة في بناء إذاعة «صوت أمريكا» في إسرائيل؛ لاحتواء الجمهوريات السوفيتية من الجنوب.. وتحجيم الدولة السوفيتية لتبقى دولة كبرى في العالم الثالث ولسنوات طويلة!

☆ ☆ ☆

(تم الكتاب بحمد الله)

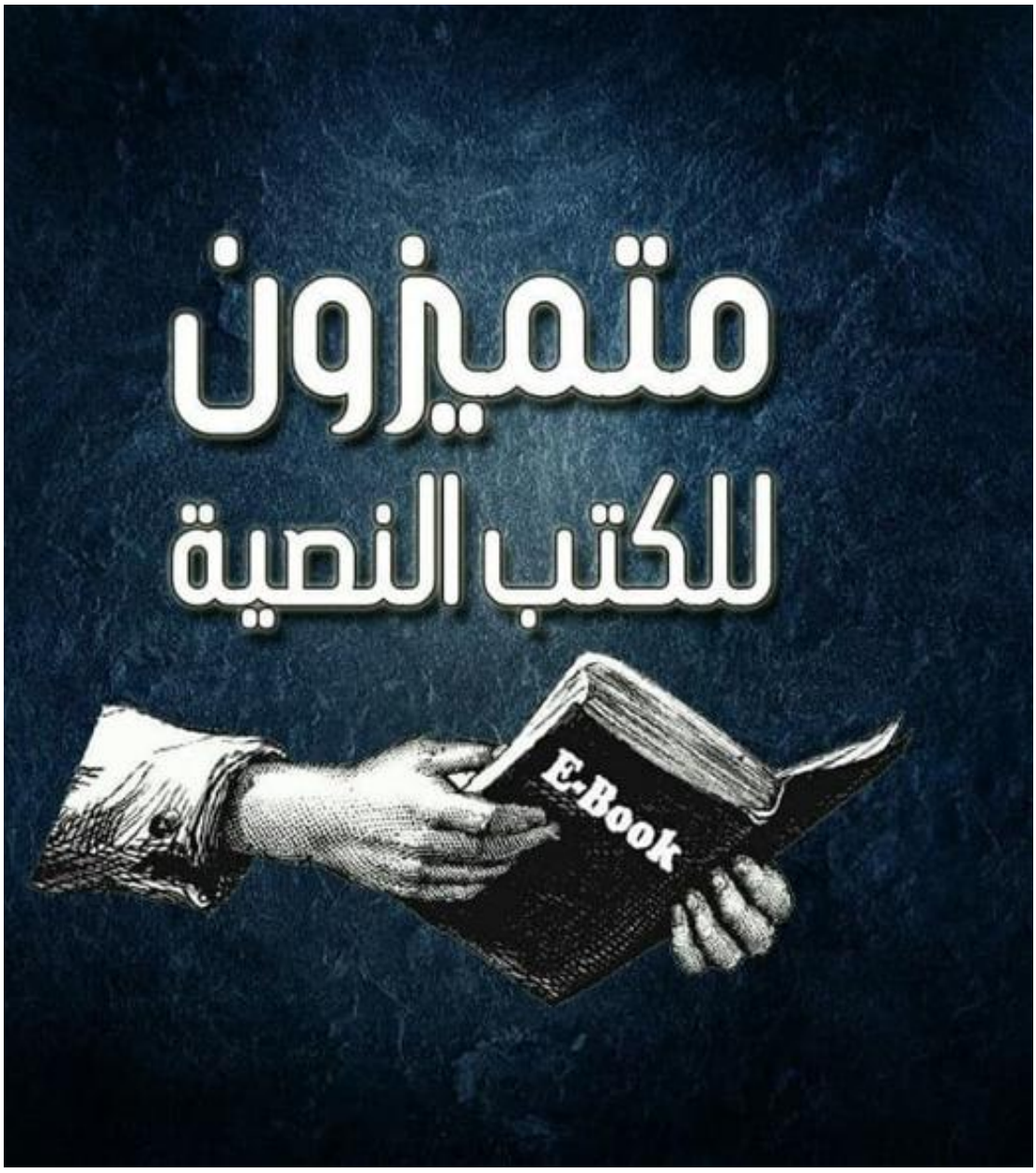
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

كلمة أولى..

لو قال الناس..

لا منطق لها..

لا إعدام!

القبيح الوجه

القبيلة 13

توقيعات لستالين

أعود إلى سيناء

هذه البقعة

مين قتل مين؟

رئيس وزراء الخنافس!

هاجمتني لبنان!

.. له حل

صدقها هي!

اعتادوا الدمار!

لبنان: مشكلة!

لأننا اعتدنا عليها!

طابا لنا

لا شعبية لهم!

شياطين حمر؟!

إدمان دولي

إن كان أنيس منصور؟

شيكولاتة للسادات؟!

كأعداء الدولة

بوش منتصرًا

دولة غنية

سيد العملات
مثل ماذا؟
صبر أيوب
أم علي..
أعظم سياسي
حسدوه
البعبع الألماني..
لا ستر ولا غطا..
تراجمة خواجات
تغيير اسمها
غلطة جورباتشوف
رئيسة وزراء فرنسا
أخلاق المخابرات
مدن؟؟ بركان
أنت حر!
لابد أن يفشل!
من هو العدو؟!
الغضب المكتوم
والتنهدات أيضًا!
حرب العشيقات
قطة الفلاسفة
الأدب على الطريقة اليابانية
الموت أهون
الحروب أُمّ الاختراعات
لأول مرة يفكرون
اجعلها أطول
.. نصف البئر!

صافح الجميع!

ناظر المشاغبين

ما يريده الأمريكان!

المستقبل الذهبي..

المال والفضيحة..

الكتاب: هدف!

مشاكل كل مكان

ملح علي جرح

حرب الخليج

مناعة الرئيس

بالون اختبار

والله لا أفهم!

تعليق الرئيس

خطف الرئيس!

الخل الوفي!

وعادت طابا

حرب المعلومات

بانوراما أكتوبر

حاكموا الصغير

وجاءت الفكرة

قبل الأوان

يفطر على بصلة

لجنة تقصي الحقائق

احتفظ بصورته

حياة غير صحيحة

الجوع كافر

عاقل! كيف؟

النصر لغيرنا

لا يصدقه أحد

ما الذي يشغلنا؟

لم يتفقوا

تشرشل فشَّار

حلمنا الجميل

المعلومات الصغيرة

الهجرة: حل!

ولكنه شيوعي!

.. قتلوهم!

اغتيال صدام

أغنية الرئيس

بوش الثاني!

فوق القانون!

أستاذ السفالة!

أخرى الكويت!

ضحية الحرية!

إنها غلطته!

غلطة جورباتشوف!

لا مفاجأة!

المنجل والمطرقة!

الوطني الخائن؟!

نهاية الرمز!

كلهم موظفون!

بلا ملامح!

حرية الاختلاف!

زوجته الفيلسوفة!

التغيير هدف!
الروك لا يقاوم!
ضعف جورباتشوف!
لحياة أفضل!
.. تجريح لعالمنا!
فشل الفيلسوف!
من فوق!
اسمه بوريس!
مسألة وقت!
فهرس المحتويات: